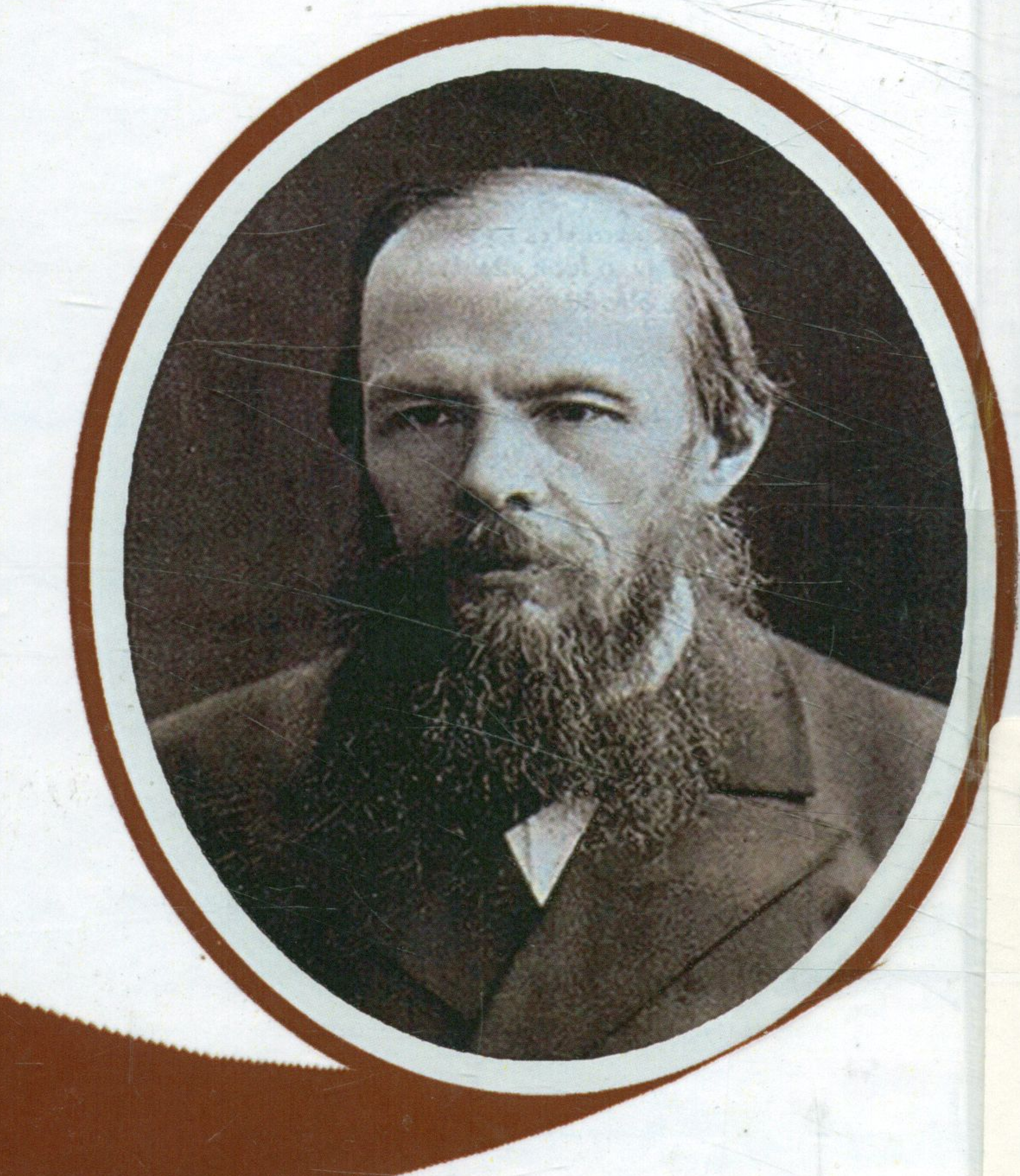
مشكلة الألم عند دوستويفسكي

د. عبد اللطيف الصديقي



Фьодор Достоевски



مشكلة الألم عند دوستويفسكي

مشكلة الألم عند دوستويفسكي

تقديم و عرض

د. عبداللطيف الصديقي

الطبعة العربية

٢٠١٥



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/١١ /٥٤٣٤)

٨١٠.٩
الصديقي، عبد اللطيف الشيخ يوسف، مشكلة الألم عند دوستويفسكي/ عبداللطيف الشيخ يوسف الصديقي .- عمان، دار أمجد للنشر والتوزيع.
( ) ص
ر.إ: ٢٠١٤/١١/٥٤٣٤
الواصفات: الأدب العربي// النقد الأدبي/.

ردمك٣-٣٤-٠٩٩-٩٩٥٧-٩٧٨ ISBN



دار امجد للنشر والتوزيع

عمان- الأردن- شارع الملك حسين مقابل مجمع الفحيص
جــــوال: 0796914632 - 0799291702
هاتف: 4652272 فاكس 4653372
dar.almajd@hotmail.com
dar.amjad2014dp@yahoo.com

توطئة

تعتبر روايات دوستويفسكي حقلاً خصباً من حقول الدراسات الأدبية الروائية لما تتمتع به من فن القصص الروائي يعرف بـ "الدوستويفسكية".

أضف إلى ذلك ما يتمتع به دوستويفسكي نفسه من رهافة حس و ذكاء عاطفي ثاقب و دقة ليس في سرد الأحداث فحسب بل في وصفها على مستوٍ ميكروسكوبي، و عمق فلسفي صارخ ذو نزعة وجودية ثم تحليل سيكولوجي فاضح- سابق على فرويد و أدلر كما يزعم النقاد و الشراح في أدب دوستويفسكي.

أو كما يقول الكاتب دانييل جرانين:" و السيكولوجيا لدي دوستويفسكي أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، و لدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها، قضية الإيمان. بم يؤمن الإنسان؟ و هل يمكن أن يوجد الله؟ لعله من السذاجة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان، الإيمان بالانسجام، بالسعادة العامة، بالمغزى و الغاية

الخاصة من وجود الإنسان... دوستويفسكي يصوّر بجسارة أناساً فقدوا الإيمان ... تخلى الإيمان عنهم و تركتهم الآلهة و ماتت .
و السؤال الذي يعذب الكاتب هو: ما الذي سيحدث للبشرية إذا لم يكن هناك إله؟ ما الذي سيحدث إذا ما حل محل الإنسان الإله شخص قوي يستبيح لنفسه كل شيء؟ فماذا لو أن النزعة الإنسانية راحت إذاً تنقرض و تفنى؟ كيف نواجه ذلك و ندفعه عنا؟" و أضيف هنا إلى إلمام دوستويفسكي بالعلوم الطبيعية و تحديداً الرياضيات التي كان لها صدى في رواياته و إيمانه الشديد باليقين الرياضياتي.
أما الألم الذي كان يداهم دوستويفسكي و هو ما تشغله هذه الصفحات قد يكون من النوع الذي بلغه سقراط قبل أن يجرع السم بعدما اتهم بإفساد الشبيبة أو هو ألم الإله شيفا - إله الدمار في الميثولوجيا الهندية- عندما تجرع سموم الأفاعي و احتفظ به في حلقومه كي ينقذ البشرية من شرها، أو هو ألم السيد المسيح (عليه السلام) الذي أراق دمه و ضحى به لكي ينقذنا و يخلصنا أو هو

سواداوية كيركجور ذات الطبيعة السيكوسوماتية- أي التفاعل بين الظواهر الجسدية و النفسية- المليئة بالخطيئة و التكفير عنها.

نترك الحكم للقارئ و كذلك الاستمتاع بقراءة هذه الصفحات إذا ما تواجد هناك من استمتاع، آملين أن تكون هذه الكلمات معبرّة عما تدور في ذهن من كتبها! لقد أفردنا ملحقاً في نهاية هذه الدراسة تحت عنوان"بمثابة خاتمة" تناولنا فيه موضوعان منفصلان، الأول قضية المرأة و الآخر صدى الجريمة عند دوستويفسكي. إنما يبقى سؤال معلق: ماذا لو عاد دوستويفسكي و عاش بيننا و اتيحت له جميع وسائل الراحة و وهب له منزلاً كبيراً و القيت جميع ديونه و دفع له مرتباً عالياً مقابل كتاباته و عولج من نوبات الصرع التي تنتابه، فهل سيكتب لنا ما كتب؟

عبداللطيف الصديقي

dralsiddiqi@yahoo.com

الزلاق، البحرين، أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٤

تقديم

"إنها الألم انشقاق القشرة التي تغلّف إدراككم.

و آلامكم تلك هي الدواء المر الذي يصفه الطبيب فيكم لأنفسكم المريضة".

جبران خليل جبران(النبي)

إن الهدف الأساسي من هذا التقديم هو إحياء و بعث جديد لمقدمة"مشكلة الألم عند دوستويفسكي" تلك الدراسة التي أعدها – كما نعتقد– نخبة من أسرة دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر بسوريه و التي جاءت كمقدمة لرواية "الأخوة كارامازوف" للكاتب الروسي الكبير فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي الصادرة في خمسينيات القرن المنصرم و تحديداً في عام ١٩٥٣– طبعاً الترجمة العربية. و يأتي استهلالنا هذا إحياء و أحتفاء بذكرى المقدمة– مرور ستون عاماً– و بكّتاب و مترجمي دار اليقظة الذين أخذوا على عاتقهم مهمة نشر الثقافة العالمية على أكمل وجه، و التي حتى يومنا هذا لا نزال نقطف من ثمار ها على الرغم من توقف الدار عن النشر.

المقدمة في حد ذاتها لوحة رائعة تعبّر عن مفهوم الألم ليس من الناحية الأدبية فحسب بل من الناحيتين الفلسفية و ا لسيكولوجية؛ فهي تزخر بعمق فلسفي شاسع الارجاء: صبغة دينية و غوص في متاهات النفس البشرية من خلال وصف المعاناة التي مر بها كاتبنا. و المثير في هذه المقدمة هو إننا نجهل كاتبها،أهو فؤاد أيوب أو سهيل أيوب أو سامي الدروبي أو ممدوح حقي أو إبراهيم الحلو أو ندرة اليازجي أو جمال الأتاسي رحمهم الله جميعاً أو واحد من أولئك الذين يترددون على الدار و يمدونها بعصارة أفكارهم. هذا ما نجهله، كل ما نعرفه هو إنها كانت مقدمة للرواية المذكورة، و أن الرواية نفسها من ترجمة أسرة دار اليقظة، هكذا جاءت إلينا، و ليس بوسعنا سوى أن ندين بالعرفان و التقدير لأصحاب هذه الدار و كتّابها.

و الرواية حسب ما جاءت على لسان الدكتور فؤاد أيوب" هي آخر و أروع أثر من آثار دوستويفسكي الأدبية. و قد ظهرت لأول مرة خلال الفترة الموافقة بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ بشكل فصول

متسلسلة نشرتها مجلة" روسكي فيستينك" التي كانت تصدر في موسكو". و يتابع " .. وهي في رأي دوستويفسكي مشتملة على عناصر الخلق الروسي بكل ما فيه من عنفوان، و تأجج عاطفة و اندفاع".

أما دوستويفسكي نفسه، فهو عملاق من عمالقة الأدب، ذو المستوى الرفيع وعبقري كوني سبر أعماق النفس البشرية، بنظرة العالم النفساني، مستخدماً أدوات التحليل الخاصة به من خلال الشخوص التي يرسمها و التي تأخذ أدوارها في الواقع اليومي و كذلك من خياله الخصب الذي صقلته الخبرة و المعاناة. المعاناة التي ستكون لب قضيتنا و غاية بحثنا. و التي يصعب رسمها أيضاً في فترة وجيزة، باستثناء رواية "المقامر" التي لم تأخذ منه سوى فترة وجيزة علماً بإنه أبرم عقداً مع الناشر قبل فترة طويلة، إلا أن معظم رواياته غالباً ما تكون مختمرة في رأسه لفترة طويلة.

و كما يقول يوري سليزنيوف " إبداع دوستويفسكي هو ظاهرة تاريخية من ظواهر الوجود الروحي للبشرية.. ظاهرة تهز الوجدان

دائماً حينما تلتقي بها". و الفضل كله يعود لزوجتة الثانية آنا غريغوريفنا التي حرصت كل الحرص على إدارة شؤونه المنزلية و كانت السكرتيرة الأمينة و الدقيقة على نشر أعمال زوجها و التعامل مع ديونه التي اثقلت كاهله. و الحديث يطول عن إخلاصها لأنها نظرت إلى شيء واحد فقط، إلى موهبة كاتبنا الفنية و ليس غير عندما عرض عليها الزواج، لكونها ستكون زوجة كاتب كبير و هو الحلم الذي كان يراودها، كانت تحلم أن تراه في يوم ما و ها هي الآن قرينة له و نعم القرينة. و إليكم ما جاء عنها عندما فاتحها دستويفسكي في الزواج، حيث كانت آنا غريغوريفنا تعمل لديه آنذاك سكرتيرة اختزال؛ و كان من عادة كاتبنا أن يملي كتاباته ذارعاً مكتبه جيئة و ذهابا.

جاء في مذكرات زوجته(آنا غريغوريفنا) على لسانه الآتي: " هل تعرفين يا عزيزتي آنا، حينما شعرت ماذا تعنين بالنسبة لي كدت أصاب باليأس، و بدا لي عزمي على الزواج منك جنوناً حقيقياً، فكري كم نحن مختلفان: الفرق في السن وحده كم هو هام.

فأنا أكاد أكون عجوزاً بينما تكادين تكونين طفلة، ثم إنني مصاب بمرض غير قابل للشفاء، و كئيب و عصبي، بينما أنت معافاة مرحة تبتسمين للحياة. لقد أشرفت حياتي على نهايتها، و ذقت خلالها الكثير من العذاب، بينما كانت حياتك كلها جيدة، و لا تزال في بدايتها، و أخيراً فإنني فقير و مثقل بالديون، فماذا يمكن أن ينتظر من كل هذا الفرق؟ إما أن نصبح بائسين و نفترق بعد أن نتعذب عدة سنوات، و إما أن نلتقي بقية حياتنا و نصبح سعيدين."[1]

إلا أن رد المسكينة على الرغم من صغر سنها، كان في قمة الصواب و الحكمة، ليس عطفاً على هذا المسكين الذي عصفت به الحياة و تقلبت به أكثر من مرة فحسب، بل التضحية بمعناها الحقيقي؛ إنه الحب الحقيقي النابع عن القلب و العقل معاً، هذا الحب الذي سرى في عروقها جاء ليحقق حلماً كانت تتمناه و يدفع بالزوج في الاستمرار و المزيد من العطاء، من تلك الموهبة الخصبة. الحب كما يقول الأستاذ علي حرب في كتابه " الحب و الفناء": " ... إذ هو

١- آنا غريغوريفنا ، دوستويفسكي في مذكرات زوجته، ترجمة هاشم حمادي، ، ص ٨٢-٨٣ ، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩

أصل راسخ في أرض الكينونة، بقدر ما هو حالة قصوىٰ من أحوال الوضع البشري؛ و هو تجربة وجودية فذّة تبدّل حياة من ينخرط فيها، بقدر ما هو حدث فريد و قاهر يجتاح صاحبه لكي يجعله أسير هواه، عبداً لمن يقع في حبه و شباكه. و لكنها عبودية يشعر معها المرء بملء الحرية، بقدر ما يمارس وجوده علىٰ سبيل الحضور و الإزدهار و الاستمتاع.

فإن لحظة حب واحدة هي اختلاسة فردوسية عجيبة تختزل كيان العاشق بكلتيه، لأن من يهوىٰ و يعشق يحيا حياته، بكل قواها و مداركها: بآلات الحس و سيناريوهات الخيال، برهافة الذوق و حيل العقل، ببهجة المعرفة و سلطة الغواية، بسحر الكلام و فيض الإلهام".

و كما يقول جبران خليل جبران في رائعته(النبي):" إذا الحب أومأ إليكم فاتبعوه حتىٰ و إن كانت مسالكه

وعرة و كثيرة المزالق.

و إذا الحب لفكم بجناحيه فاطمئنوا إليه، حتى و إن جرحتكم النصال المخبوءة تحت قوادمه.

و إذا الحب خاطبكم فصدقوه، حتى و إن عبث صوته بأحلامكم كما تعبث ريح الشمال بأزهار الحديقة.

و مثلما يكون الحب لكم تاجاً، يكون لكم صليباً. فهو إذ ينميكم يقلمكم كذلك".

أما ما تلفظت به هذه الوديعة:" إنك تبالغ يا عزيزي في كل شيء، فالفرق الذي تعتقد أنه بيننا لا وجود له، و إذا أحببنا بعضنا بقوة أصبحنا صديقين، و سنكون سعيدين بدون حدود. و لكن ما يخيفني شيء آخر: كيف تختار و أنت الإنسان الذكي و الموهوب و المثقف رفيقة دربك فتاة حمقاء، قليلة الثقافة بالمقارنة معك، و إن كانت قد حصلت في المدرسة على ميدالية فضية كبيرة(كنت أعتز بها آنذاك كثيراً)، و لكنها ليست من الذكاء بحيث تكون رفيقة دربك. أخشى أن تكتشفني بسرعة فتصاب بالحزن و الأسى، لأنني غير قادرة على فهم أفكارك، إن هذا الفرق أسواء المساويء".[٢]

[٢] آنا غريغوريفنا، مصدر سابق ص ٨٣

إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه، كيف يجروء هذا الكاتب بطلب يد فتاة بريئة في مقتبل العمر جاءت إليه في طلب المساعدة من أجل إنجاز روايته المرتقبة أن يستغل هذا الظرف، فالوضع كما يتراءى له مضحكاً للغاية، و ها هو يقول و كله حسرة و تردد " ترددت طويلاً في كيفية القيام بذلك ، فالرجل الكهل و القبيح، الذي يطلب يد فتاة شابة و لا يلقى الشعور المتبادل يمكن أن يبدو مضحكاً "[٣]

و يسرد لنا هنري ترويا كيف نفضت آنا غريغوريفنا الغبار عن حياة دوستويفسكي في الوقت الذي كانت تسري فيه حمى القمار و استحوذت على تفكيره" ... و إلى جانب هذا الرجل العظيم، لم تكن الملهمة، بل الأخت المحبة، راهبة الشفقة و الرحمة، و رسول الراحة و الأمان. و الحال، أن دوستويفسكي كان بحاجة إلى الراهبة التي تشفق عليه أكثر من حاجته إلى ملهمة. فاستقبلها و هو في حالة من الاضطراب الشديد، كان شاحب الوجه، ... و أخذ ينظر أمامه إلى

[٣] آنا غريغوريفنا، مصدر سابق ص ٨٣

ذلك الوجه النضر و النقي، الذي لم يؤثر به الزمن، ذلك الوجه البسيط الذي يمثل الفوز و الانتصار، و كم هي فتية!"[4]

هذا هو دوستويفسكي الذي قال عنه جوركي" ليس ما يعادل موهبته الفنية قوة إلا موهبة شكسبير وحده"، و و صفه الناقد بيلينسكي بأنه " غوغول جديد".

هكذا تصدى له النقاد و كله تحفة فنية نادرة؛ نادراً أن تجد في التاريخ الأدبي روائي بهذا العطاء الذي يعترف بقرارة نفسه بإنه خرج من معطف غوغول- "المعطف" هي رواية غوغول الشهيرة و التي كان لها تأثير قوي على الكثيرين من الذين قرأوا الرواية في روسيا آنذاك و كاتبنا واحد منهم.

و عندما حمل غريغوروفيتش رواية"الناس الفقراء" (المساكين) أولى روايات كاتبنا إلى نيكراسوف –شاعر روسي – الذي بدا متردداً، و أبدى بعض الشكوك، تنازل أخيراً إلى الاستماع إلى قراءة غريغوروفتيش، عشر صفحات منها ثم عشر صفحات أخرى حتى

[4] هنري ترويا، دوستويفسكي: حياته – أعماله ، ترجمة على باشا ،ص ٣٧٥ و ٣٧٩، دار علاء الدين، دمشق- ٢٠٠٦

وصل إلى نهايتها، حتى أخذ يجهش بالبكاء و كان وجه نيكراسوف عندئذ مغطى بالدموع، و صاح غريغوروفتيش" يجب أن نذهب إلى دوستويفسكي و نعلن له البشارة."[٥]

و إليكم الحدث بشيء من الإيجاز و الدقة" بعيد الساعة الثالثة من صباح أحد أيام أيار(مايو) ١٨٤٥خلال فترة (الليالي البيضاء- رواية لدوستويفسكي) في سانت بيترسبورج، قرع شابان مهتاجان باب شاب ثالث و أيقظاه من نومه ليعبرا عن رأيهما بأنه عبقري. فأما الشاب الذي جرى الاحتفال بعبقريته بهذه الطريقة الدرامية المؤثرة فكان دوستويفسكي، و أما زائراه فكانا غريغوروفتش و نيكراسوف، و قد أنهيا للتو قراءة مخطوطة رواية الفقراء (المساكين)- و عانقاه بحرارة".

و لكن ما حدث لدوستويفسكي في نيسان (أبريل) من عام ١٨٤٩ شيء مختلف تماماً حيث" أوقظ دوستويفسكي مرة أخرى من نومه

[٥] المصدر نفسه، ص ٩١

في ساعات الصباح الباكرة. لكن القادمين هذه المرة لم يأتوه بإكليل من الغار بل من الشوك، لقد جاء ضباط القيصر لاعتقاله"[٦]

و هكذا تم القبض على دوستويفسكي " و قدم إلى المحاكمة بتهمة التحريض الاجرامي، إذ كان منتمياً إلى جماعة من الشبان عرفت باسم البتراشيفسكيين نسبة إلى مؤسسها بتراشيفسكي.

كان القيصر نيقولاي الأول مذعوراً من أبعاد ثورة ١٨٤٨ الهائلة في أوربا و التي اطاحت بالعروش و زلزلتها، و قد أراد بدوره أن يلقي الرعب في قلوب رعاياه، فقام بنفسه بوضع سيناريو رهيب لجماعة البتراشيفسكيين. ففي ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ اقتيد دوستويفسكي مع أعضاء الجماعة الآخرين إلى ساحة اعدام مطوقة بالقوات.[٧]

... و قرئ عليهم حكم الاعدام رمياً بالرصاص،... و ظل المحكومون بالاعدام ينتظرون تنفيذ الحكم نصف الساعة في صقيع

---

[٦] ريشارد بيس، دوستويفسكي، دراسة لرواياته العظمى،ترجمة عبدالحميد الحسن ،ص ٩-١٢، وزارة الثقافة-دمشق، ١٩٧٦

[٧] فيدور دوستويفسكي "المقامر"، ترجمة سامي الدروبي أنظر المقدمة تحت عنوان: ٢٦ يوماً من حياة دوستويفسكي، بقلم ايجور فولجين، دار رادوغا، موسكو ١٩٨٧

يبلغ عشر درجات تحت الصفر. ثم ظهر في الساحة فارس، و قرئ على المحكومين بالاعدام الأمر القيصري السامي بتخفيف الحكم.

و قضت مشيئة القيصر بالحكم على دوستويفسكي بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات، و بعد ذلك يلحق بكتائب المشاة في سيبيريا.

و إليكم ما جاء على لسان دوستويفسكي نفسه في الرسائل الآتي:

اليوم، ٢٢ كانون الأول، اقتدنا إلى ساحة سميونوفسكي. هناك، تّلي علينا الحكم بالموت؛ جعلونا نلثم الصليب، كسروا سيوفاً فوق رؤوسنا، و ألبسونا القمصان البيضاء. بعد ذلك، ثبّتوا ثلاثة منا على عواميد لتنفيذ الحكم. كان ترتيبي السادس، و كانوا ينادون ثلاثة أثر ثلاثة. كنت في الدفعة الثانية، و لم يبق من حياتي سوى لحظات. عندها ذكرتك يا أخي، و ذكرت أولادك جميعاً. في لحظاتي الأخيرة، كنت وحدك في خاطري. و عندما أدركت كم كنت أحبك يا أخي الحبيب. لقد أتيح لي أن أعانق بلستثيف و دوري الذين كانا إلى جانبي، و أن أودعهما الوداع الأخير.

أخيراً، دق جرس الفسحة، و الذين كانوا مقيّدين إلى العواميد أخليّ عنهم، و قرأوا علينا أن جلالة الإمبراطور قد وهبنا العفو."[٨]

يالها من لحظة قاسية و مرّة،.. كم عانيت و ذقت مرارة الألم و العذاب يا دوستويفسكي، و هل هناك عذاب أكثر من ذلك. قد تخور قوى المرء بمجرد الوقوف في ساحة مثل هذه، أضف إلى ذلك البرد الشديد الذي كان ينخر جسد كاتبنا نخراً. إنها بلا ريب تجربة قاسية،...

و ظلت هذه التجربة عالقة في ذهن دوستويفسكي يرد ذكراها على ألسنة أبطاله في رواياته الخالدة؛ و هاهو يسرد الحدث بشيء من التفصيل على لسان الأمير ميشكين في رائعته"الأبله" على سبيل المثال:" إن صدور الحكم و استحالة الإفلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيباً فظيعاً. صدقني: ليس في الدنيا عذاب أشد هولاً من هذا العذاب. لو أخذت جندياً فوضعته في قلب المعركة أمام فوهة المدفع، ثم أطلقت عليه النار، لظل يحتفظ بالأمل إلى آخر لحظة. أما

[٨] اندريه جيد، دوستويفسكي: مقالات و محاضرات، ترجمة الياس حنا الياس، منشورات عويدات- بيروت – باريس،١٩٨٨

إذا قرأت لهذا الجندي نفسه قراراً يحكم عليه بموت"مؤكد"، فإن هذا الجندي سيفقد عندئذ عقله، أو سيجهش باكياً. من ذا الذي قرر أن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟ فيم إيقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء و العقم؟ ربما كان يوجد في هذا العالم إنسان حكم عليه بالموت و شرع في تعذيبه ذلك التعذيب، ثم قيل له أخيراً:"امض فقد صدر عفو عنك". إن في وسع هذا الإنسان أن يحكي لكم و أن يقص عليكم. المسيح نفسه قد تكلم أيضاً عن هذا العذاب، عن هذا الخوف! لا، لا يجوز أن يعامل كائن إنساني معاملة كهذه المعاملة!

... هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالإعدام، اقتيد معهم إلى المكان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم، و قرئ عليهم قرار المحكمة بإعدامهم رمياً بالرصاص لجريمة سياسية. و بعد نحو عشرين دقيقة تلي عليهم قرار آخر يعفو عنهم، و يلغي حكم الإعدام و يبدّله بحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة. و لكن في الفترة التي انقضت بين تلاوة الحكم الأول و تلاوة الحكم الثاني،

أي خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل، عاش الرجل في يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع دقائق. ما كان أشد رغبتي الرهيبة في أن أسمعه يصف المشاعر التي أحس بها أثناء ذلك!... و يؤكد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق في يوم من الأيام. على مسافة عشرين خطوة من صقالة الإعدام التي وقف قربها الناس و الجنود، كانت قد دقّت في الأرض أعمدة ثلاثة، إذ كان هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالإعدام. اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك الأعمدة، و شدّوا إليها، و ألبسوا لباس المحكوم عليهم بالإعدام(و هو نوع من جلباب طويل أبيض)؛ و عصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق. و بعد ذلك جاءت تقف، قبالة كل عمود، زمرة الجنود التي ستطلق رصاص الإعدام....

و جاء كاهن يبارك الرجال المحكوم عليهم بالإعدام. و لم يبق لهم من الحياة إلا خمس دقائق يعيشونها. قال لي الرجل: إن هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة طولاً لا نهاية له، غنية غنى لا ينضب. بدا له أنه خلال هذه الدقائق الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة

أنه ليس في حاجة، بعد، إلى التفكير في اللحظة الأخيرة. حتى لقد رتب أموره و أتخذ إجراءاته على هذا الأساس، فحدّد الزمان الذي سيودع فيه رفاقه و خصص له دقيقتين، و عيّن دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخرى، و ترك الوقت لإلقاء نظرة على ما حوله. و إنه ليتذكر تذكراً واضحاً أنه تقيد بهذا التوزيع للوقت تقيداً تاماً. كان سيموت و هو في السابعة و العشرين من عمره، ملئياً بالصحة و العافية، زاخراً بالنشاط و القوة.

و لكنه قال: إنه لا شيء كان أشق على نفسه عندئذ من هذه الفكرة التي كانت تدور في خاطره:" ليتني أستطيع ألا أموت! ليت الحياة ترد إلي! ما أعظم الأبدية التي سأنعم بها إذا أمكن ذلك! لأحيلن كل دقيقة دهراً، و لأحصين جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة، و لا أبدد منها واحدة!" (و هكذا انتزع دوستويفسكي من الأدب لعشر سنوات كاملة. و قضى فترة عقوبته مقيداً بالسلاسل في بيت الأموات، ذلك السجن البعيد وسط سيبيريا المغطاة بالثلوج. و أثناء

فترة الاشغال الشاقة هذه دهمت دوستويفسكي أولى نوبات الصرع، ذلك المرض المقدس الذي ظل يطارده طول حياته...."[9]

و قبل هذه الأثناء كتب دوستويفسكي خطاباً إلى أخيه ميشل(مايكل) جاء فيه:

" لقد تقرر كل شيء، لقد حكم علي بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات(اعتقد سأمضيها في أورنبورغ) و بعد ذلك بالخدمة العسكرية كجندي صف عادي... و قد قيل لي الآن، إنهم سيرحلوننا اليوم أو غداً. لقد طلبت أن يسمح لي بمقابلتك، و لكنهم أكدوا لي أن هذا مستحيل يا أخي، أنا لست محبطاً أو منهاراً، و لم أفقد عزيمتي و شجاعتي، و مع ذلك فإن الحياة هي الحياة.

و الحياة في داخلنا، في نفوسنا، و ليس في العالم الذي يحيط بنا. و إلى جانبي سيكون هنالك رجال، و أن أكون رجلاً بين الرجال و أظل هكذا على الدوام، أياً كانت الظروف، دون أن أضعف، و دون أن أسقط،

[9] فيدور دوستويفسكي،" الأبله"، ترجمة سامي الدروبي، ص ٤٤، و ص ١١١- ١١٣ ، الجزء الأول ، المركز الثقافي العربي- بيروت، الدار البضاء، ٢٠١٠)

فهذه هي الحياة، و ها هو المعنىٰ الحقيقي للحياة. و قد فهمته، و هذه الفكرة دخلت بي و تخللتني، و إلىٰ الدم...

ربما سنرىٰ بعضنا يا أخي. اعتن بنفسك، حاول أن تعيش، بحق السماء، حتىٰ لقائنا المقبل. و ربما استطعنا، في يوم من الأيام، أن نتعانق، و أن نتذكر سوية حياتنا الجميلة الماضية، شبابنا، آمالنا التي انتزعها الآن من قلبي الدامي، لكي ادفنها..

أمن الممكن ألا امسك بالقلم، من جديد، أبداً؟ أظن أني سأستطيع أن أفعل ذلك، بعد أربع سنوات. و لو منعت من الكتابة، فإني سأموت. و أنا أفضل الإقامة في السجن خمس عشرة سنة، علىٰ أن يكون القلم في يدي...

و إذا كان هنالك من يحتفظ عني بذكريات سيئة، و إذا كنت قد اختلفت مع أحد ما، و إذا كنت قد تركت لدي أحدهم انطباعاً سيئاً عليٰ، قل لهم أن يتناسوا هذه المآخذ، عندما ستلتقي بهم.

فلا يوجد شرّ و كراهية في قلبي. و ستكون لدي رغبة شديدة بأن أحب و أعانق أيا كان من رفاقي في هذه اللحظة. و عندما أنظر إلىٰ

الماضي، و أفكر بكل ذلك الوقت الذي بدّدته، و بكل ذلك الوقت الذي أضعته في الزيغ و الضلال، و الأخطاء و التفاهات، بسبب جهلي للحياة، يجتاح قلبي فيض من الدم. سأتطور و أتبدل نحو الأفضل، و هنا يكمن كل أملي و كل عزائي.

آه! متى سأراك؟ متى سأراك؟ الوداع، إني انتزع نفسي من كل شيء، من كل ما كان محبباً إلى نفسي! إنه لمن القسوة بمكان أن أغادر و أتخلى عن كل ذلك. إنه لأمر قاسٍ جداً أن يكسر المرء نفسه إلى اثنين، و أن يمزق قلبه إلى جزأين. الوداع! الوداع!.. و لكني سأراك ثانية، أنا متأكد من ذلك و آمله من كل قلبي.

لا تتغير، أحببني، احفظني في ذاكرتك، و فكرة محبتك ستكون هي فرحتي الكبرى في حياتي، الوداع! مرة أخرى، الوداع! و داعاً للجميع".[١٠]

لنرى كيف كان ينظر النقاد إلى كاتبنا بدءاً من فيساريون بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨) الذي قال عنه في حماسة شديدة عن روايته(المساكين):" التكريم و المجد للشاعر الشاب الذي تحب

[١٠] ترويا، ص ١٨٠- ١٨١، مصدر سابق

ملهمته الناس سواء أكانوا في السطوح أو السراديب و هي تقول لساكني القصور المذهبة: أنظروا أنهم بشر مثلكم و هو أيضاً اخوتكم".

و بعد خطابه عن بوشكين، هتف به، حسب قوله، كأنه قديس و نبي، إذ صاح الجمع: نبي، نبي. و بعد وفاة دستويفسكي ألقى صديقه الشاب فلاديمير سولوفيوف على أنه" نبي من الله و بصير بالغيب متصوف"

أما نيكولاي ميخائيلوفسكي فكتب" أن دوستويفسكي سادي يتلذذ العذاب، له أحاسيس ذئب يلتهم حملاً، و أحاسيس حمل يلتهم ذئباً".

و نجد أن الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) عندما قرأ (مذكرات من العالم السفلي) وجد نفسه على صلة كبرى بعقل دوستويفسكي و اعتبره "السيكولوجي الوحيد الذي كان له أن يتعلم منه شيئاً".

" إلا أن نيتشه كان إذ ذاك قريباً من الجنون، فكان اكتشافه لدوستويفسكي قد جاء متأخراً، تأخراً لا يسمح بإحداث أثر ملحوظ على تفكيره... فلم يتعمق إذن في إدراك الفحوى الصحيح لمركزه الديني و الفلسفي".

و ها هو ديمتري ميرشكوفسكي(١٨٦٥-١٩٤١) يعقد مقارنه بين كاتبنا و الكاتب الكبير ليف تولستوي و يقول أن تولستوي "عابد الطبيعة و نبي الجسد"، بينما دوستويفسكي فهو" مسيحي و نبي الروح. ليس كاتباً واقعياً بل رمزياً، لا يصف وضعاً اجتماعياً و لكنه يقدم مآسي أفكار، إنه نبي دين جديد متجسد في أعمال فنية".

و يصف مكسيم جوركي دوستويفسكي" بالعبقرية الشريرة في روسيا، و الرجعي المدافع عن الاستسلام السلبي للطغيان". و بعد ثورة أكتوبر أزيح دوستويفسكي عن العرش الذي كان يحتله باعتباره منافساً لتولستوي و بات سلعة ممنوعة إبان الحكم الستاليني، و انتهى الأمر إلى تقسيم دوستويفسكي إلى فترتين:

فهناك دوستويفسكي "الطيب"، التقدمي الإنساني، و هناك دوستويفسكي" السيئ" الرجعي المتدين الذي ظهر في السنوات اللاحقة.[١١]

إن الذي يثير تساؤلنا لماذا كان دستويفسكي صديقاً للألم؟

يمكننا الإجابة بالآتي : "كان الانتقام حالة تعويضية، أراد بها الكاتب أن تكون تكفيراً عن عذاب الوجدان الذي عاناه و الألم الذي تعرض له عندما كان صغيراً (موت أو قتل الأب)... إنه و أن تحمل الألم مازوكياً، كما يقال، و هو في ذلك يتخذ صيغة الإيلام الجسدي، خالقاً بذلك صورة لا تفارق إلا إنها تجسدت بدلالات كثيرة في الحالة الأدبية، ... و هذا دليل آخر على ظاهرة تفوقه على أبيه، الذي تركه وحيداً و هو في غضاضة الصّبا، لين العود أمام الهجمات الكبيرة و المحن التي تعرض لها في حياته، .. و إن النوبة التي يتعرض لها الكاتب، و التي اصطلح التحليل النفسي على

[١١] دستويفسكي، تحرير رينيه ويليك، ترجمة نجيب المانع،ص ٩- ١٤، المكتبة العصرية- صيدا، بيروت ١٩٦٧

تسميتها(هستيرية) إنما هي عقاب للذات على رغبة في الموت موجهة ضد أب مكروه."[12]

أما دستويفسكي نفسه فهو يصّرح في روايته " الجريمة و العقاب "على أن الألم إجباري"، و يشدد أيضاً على "أن الرجال العظام على ما يبدو، أن يتألموا على الأرض ألماً شديداً." و عندما انحني راسكولنكوف- بطل الرواية – أمام البطلة سونيا معترفاً بجريمته قال:" إنني لم أنحن أمامك بل انحنيت أمام آلام البشرية كلها".[13]

و في رواية "الأبله" يصّور لنا دوستويفسكي اللحظات العصيبة قبيل تنفيذ حكم الإعدام، التجربة التي كانت ماثلة أمامه طوال حياته وتراه يصرخ بأعلى صوته على لسان أحد أبطاله هاتفاً:" ... و الألم الرئيس، و الألم الذي هو أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح، بل الألم الذي ينشأ عن يقين المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة، ثم الآن فوراً، ستترك روحه

[12] عبدالرزاق صالح، "كشوفات دوستويفسكي"،ص ١١ -١٢، دار الينابيع- دمشق، ٢٠٠٨
[13] نفسه، ص ٣٥ و ص٤٠

جسدها، و أنه لن يكون بعد تلك اللحظة إنساناً، و أن هذا أكيد، إنه أكيد خاصة".

و يواصل بطلنا" من ذا الذي قرر أن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟ ربما كان يوجد في هذا العالم إنسان حكم عليه بالموت، و شرع في تعذيبه ذلك التعذيب، ثم قيل له أخيراً: أمض فقد صدر عفو عنك! ... ليتني أستطيع ألا أموت! ليت الحياة ترد إلي! ما أعظم الأبدية التي سأنعم بها إذا أمكن ذلك! لأحيلن كل دقيقة دهراً، و لأحصين جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة، و لا أبدد منها واحدة!".[14]

و ينتهي دوستويفسكي على أن الألم ضروري و حتمي و إلا أصبح وجودنا عدماً، فأن تحيا يعني أن تتألم. و هذا الألم يستمر معنا كي نظفر بالسعادة، فالسعادة لا يمكن أن تأتي دون وجود ألم، أي إنها حتمية و رديفة للألم مهما كانت شدته و مرارته:" لا أدري، لا بدّ أن نتألم حتى النهاية في سبيل سعادتنا المقبلة، يجب أن نشتريها بآلام

[14] دوستويفسكي، الأبله، الجزء الأول، ص ٤٣-٤٤ و ص ١١٣

جديدة. إن الألم يطهر كل شيء. آه يا فانيا، ما أكثر ما نتألم في هذا الوجود".[15]

يأخذنا ف.ف. زينكوفسكي إلى عالم دوستويفسكي الديني و الفلسفي في كتابه"تاريخ الفلسفة الروسية"-الترجمة الأنجليزية لعام ١٩٥٣- على أن دوستويفسكي كان مأخوذاً بفكرة الله على الرغم من أنه لم يشك في وجوده يوماً، و لكن ما يرهقه" مشكلة ماذا يترتب على وجود الله بالنسبة للعالم- فطوال حياته كانت تعذبه فكرة الله على حد تعبيره- و لكن هذه الشكوك قد نشأت في أعماق الوعي الديني نفسه. كانت كلها متجمعة حول موضوع واحد: العلاقة التبادلية بين الله و العالم"

و يضيف" لم يكن الله قد عذّب دوستويفسكي طوال حياته فحسب، و إنما ناضل دوستويفسكي الله طوال حياته – و هذه العملية الدينية الحميمة توجد في أساس تطوره الروحي كله".[16]

[15] دوستويفسكي، مذلون مهانون، ص ١٤٠

[16] رينيه ويليك، ص ٢١٣-٢١٤، مصدر سابق

"كان دوستويفسكي رجلاً مأخوذاً بالله، إذ لم يكن هناك رجل مثله، و يتضح ذلك من جميع كتاباته و الشخصيات التي ابتكرها. و كان طيلة حياته يبحث عن الله، و وجده في آخر أيامه فقط، بعد أن اجتاز عبر ما سمّاه "نار جحيم الشك". و وجد بأن حرية الاختيار بين الخير و الشر هي جوهر الوجود الأرضي. "أقبل المعاناة، و يتم فداؤك بها"- كانت هذه هي رسالة دوستويفسكي إلى عالم يسرع مسعوراً في الاتجاه المعاكس، باحثاً عن طريقة المعاناة و العثور على السعادة".

و ها هو دوستويفسكي يهتف على لسان ديمتري كارامازوف:" ليس الجمال شيئاً فظيعاً و حسب، و إنما غامض أيضاً. فهناك الله و الشيطان يتصارعان على السيادة و أرض المعركة هي قلب الإنسان".[١٧]

و كما يقول ميتينكا مخاطباً أخاه أليوشا:" الجمال شيء رهيب مخيف! هو رهيب لأنه لا يحدد... و لا يمكن تحديده لأن ... الله ملاء

[١٧] إرنست: دوستويفسكي و الله: مختارات من أعماله الروائية، تقديم إرنست جوردن، ترجمة قسطندي شوملي، ص٧ و ٩ دار الجيل-بيروت ٢٠٠٠

الأرض ألغازاً و أسراراً. الجمال هو الشطآن تتقارب، هو الأضداد تتحد".

و نجد تنوع الأفكار و حيوتها عند دوستويفسكي ثم وصمها على شخوص رواياته سمة أساسية تجعله يسمو عالياً نذكر منها:" التواضع المسيحي في شخص الأمير ميشكين و اليوشا كارامازوف، و الكبرياء الشيطاني في شخص راسكولنكوف و إيفان كارامازوف، و الإلحاد الديلكتيكي في شخص كيرلوف، و الروح السلافية النبوية في شخص شاتوف. الأفكار لدي دوستويفسكي في أحسن كتاباته أفكار مشعة، فالآراء تصبح صوراً و شخصيات و رموزاً بل و حتى أساطير. و لو أن دوستويفسكي قدم مجرد صورة عن الحياة في الأكواخ الروسية في القرن التاسع عشر، أو كشف عن نسخة غريبة من التأمل الصوفي و السياسة المحافظة، لما كان اليوم يقرأ في جميع انحاء العالم".[١٨]

و إذا عدنا إلى مسألة الألم نجده يسري بالمنوال نفسه عند رائد الوجودية سرن كيركجور، و ذلك "حينما يستولي الشعور بالخطئية

[١٨] ويليك، ص ١٨ مصدر سابق

على النفس الآثمة المنسحقة أمام الله، فإنها لا بدّ أن تجد نفسها بإزاء الله وجهاً لوجه- و بهذا المعنى ذهب كيركجور إلى القول بأن الوجود في أعلى درجاته هو ألم و عذاب، أو هو على وجه التحديد عذاب ديني لأن الخطيئة هي التي تقودنا إلى أعتاب الوجود الصحيح، و الرجل المذنب أو الخاطئ يجد نفسه وحياً أمام الله، و هو لا بدّ أيضاً أن يتأمل حريته في صميم تلك الخطئية التي وقع تحت عبوديتها". [١٩]

و لكن ماهي الخطئية التي ارتكبها دوستويفسكي؟

" فالخطأ و الألم هما التعبيران العنيفان عن وجود الإنسان الصغير العاقل الأخلاقي، أو المحتاج إلى العقل و الأخلاق وسط هذا الكون الكبير الذي ليس له عقل و لا أخلاق و لا يحتاج إلى شيء من ذلك.

[١٩] زكريا إبراهيم، الفلسفة الوجودية، ص ٤١-٤٢، نقلاً عن إمام عبدالفتاح إمام، سرن كركجور: رائد الوجوديه ص ٣٢

إن ألم الإنسان كله في ضعفه، و ضعفه كله في وجوده أو كونه يعيش، إذن، ألم الإنسان كله في كونه موجود حي،... أنت تحيا إذن أنت تتعذب، إن أكثر الكائنات عذاباً هي أكثرها حياة،.."[20]

" الإنسان لا يحتاج إلا لإرادة مستقلة، مهما كلفه الأمر و إلى أي مكان اقتاده ذلك، .. و أنا على قناعة تامة بأن الإنسان لن يتخلى أبداً عن الألم و المعاناة الحقيقية، أي عن الخراب و عن الفوضى".

" و إنما بفضل المعاناة و الألم يقترب الإنسان مما لا يمكن إدراكه و معاً لا يمكن بلوغه و الوصول إليه، من الأعجوبة و المعجزة، و إنما بفضل المعاناة و الألم يرتفع و يسمو فوق نفسه.

و بالواقع، فإن دروب الألم، و دروب الحرية تؤدي إما إلى اكتشاف الله، و إما إلى تأليه الإنسان، فالإله-الإنسان و الإنسان – الإله". [21]

و في رواية" الجريمة و العقاب" يتحدث إلينا دوستويفسكي على أن " الإنسان ليس الله، و الأقوى لا يوجد إلا إذا وجد الله، و إنكار الله، هو إنكار الإنسان لذاته. و أن يريد الإنسان أن يصبح إلهاً، فهذا

---

[20] القصيمي، كبرياء التاريخ في مأزق، ص ١٦٠، و ص ٣٤١ ، مؤسسة الانتشار العربي- بيروت، ٢٠٠١

[21] ترويا، ص ٣٣٠ مصدر سابق

يعني أنه يريد أن يموت كإنسان، و أنه يريد أن يذوب و يندمج في الكون، و يعني أنه يريد أن يكون و ألا يكون بعد الآن في آن معاً" [٢٢]

و ها هو بردياثف يقول عن دوستويفسكي" لعب دوستويفسكي في حياتي الروحية دوراً حاسماً. فقد تلقيت منه- و لمّا زلْت مراهقاً- ما يشبه التطعيم . و أثار فيّ من الحماسة و النشوة ما لم يثره كاتب أو فيلسوف آخر.

و كنت في كل مراحل حياتي أشطر الناس قسمين: أولئك الذين تأثروا بروح دوستويفسكي، و أولئك الذين كانوا عن هذه الروح غرباء." [٢٣]

أما كارياكين فيقول" إن دوستويفسكي شيدّ ميكروسكوباً ذا قوة هائلة يستطيع به المرء أن يتمكن من رؤية أشياء كثيرة كانت غير قابلة من قبل لأن تراها العين البشرية،لكنه غالباً ما يشوّه صورتها و يجعلها تنحرف . و هكذا ينبغي أن يحسب المرء بدقة المؤشر القياسي لهذا الانحراف لكي يكون قادراً على استخدام(و تطوير) الفراسة

[٢٢] نفسه، ص ٣٥٧

[٢٣] نيقولا بردياثف ، رؤية دوستويفسكي للعالم، ترجمة فؤاد كامل ص ٧ ، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ١٩٨٦

التي حققها دوستويفسكي، لاستخدامها ضد خدعه الخاصة و ضد أي محاولة لإبراز هذه الخدع. إن فراسة دوستويفسكي عميقة و لا تقدر بثمن في الحقيقة." [٢٤]

"إن حياة دوستويفسكي لتبدو لنا و كأنها أكثر رواياته إثارة" هذا ما قاله إيجور فولجين تحت عنوان" ٢٦ يوماً من حياة دوستويفسكي" و يضيف: كان عام ١٨٧٧- عام كتابة"المقامر"- بالنسبة لدوستويفسكي نقطة تحول في حياته و ابداعه. لقد ولد دوستويفسكي في ٣٠ أكتوبر من عام ١٨٢١ في مدينة موسكو و ظهر إلى النور في أحد أجنحة مستشفى القديسة ماريا للفقراء حيث كان أبوه ميخائيل يعمل طبيباً حكومياً،... و كان والد الكاتب قد شق طريقه بنفسه، إذ ترك منزل الأسرة في غرب اوكرانيا و هو في الخامسة عشرة من عمره(و كان أبوه أي جد الكاتب قسيساً)، و التحق بقسم الاكاديمية الطبية الجراحية بموسكو. و بعد أن حصل

---

[٢٤] ي. كارياكين، دوستويفسكي إعادة قراءة، ترجمة خليل كلفت، ص ١٠، كومبيو نشر- بيروت ١٩٩١

على لقب مطبب تزوج عام ١٨١٩ من ماريا فيودرفنا نيتشا يفا ابنة أحد سراة التجار في موسكو.

و فيدور هو الابن الثاني في الأسرة(كان عدد أطفال أسرة دوستويفسكي سبعة: أربعة أخوة و ثلاث شقيقات).

فقد صور دوستويفسكي خالته كومانينا- التي تزوجت تاجر ثري و ملكت رأس مال كبيراً، كانت لها بعض الصلة برواية "المقامر"- في شخص الجدة الموسكوفية العجوز، التي وصلت إلى ألمانيا و قامرت في لعبة الروليت وخسرت نصف ثروتها.

تزامنت وفاة والدة دوستويفسكي في عام ١٨٣٧ مع المصرع المفجع لبوشكين، الشاعر الذي ظل كاتبنا يعبده طوال حياته. ارسل الأب أولاده الكبار إلى بطرسبورج، حيث التحق فيدور بالمدرسة الهندسية العامة التي كانت ستؤهله ليصبح مهندساً عسكرياً.

وفاة والد دوستويفسكي عام ١٨٣٩ في ظروف غامضة، ربما قتله أحد أقنانه. حصل دوستويفسكي على رتبة ضابط ، لكنه لم يمكث طويلاً في صفوف الجيش الروسي، إذ قدم استقالته فجأة، و أغلق

على نفسه باب شقة صغيرة في بطرسبورج و سهر الليالي و ظلت هذه العادة لديه طوال حياته في كتابة أول عمل أدبي. لقد ضابط، لكنه لم يمكث طويلاً في صفوف الجيش الروسي إذ قدم استقالته فجأة و أغلق على نفسه باب شقة صغيرة في بطرسبورج و سهر الليالي و ظلت هذه العادة لديه طوال حياته و في كتابة أول عمل أدبي. لقد جعل النجاح المذهل لروايته"المساكين" من الأديب الشاب ابن الأربعة و العشرين عاماً كاتباً مشهوراً على الفور،..

و رأى جيل نيكراسوف و تورجنيف و غريجورفتش في دوستويفسكي وريثاً جديراً لغوغول. و تنبأ له بيلينسكي أعظم نقاد عصره بمستقبل زاهر.

و مع ذلك يبقى دوستويفسكي" ممزق بين أرثودكسية شاتوف المسيحية، و مسيحية كيرلوف الملحدة. و لكن في الحالتين تظل صورة السيد المسيح مقدسة لا تمس. السيد المسيح مع الله، أم السيد المسيح من دون الله؟ هذه المشكلة التي عذبت دوستويفسكي طوال

حياته، تعذب شخصياته أيضاً. و كيرلوف لكي يتخلص من هذا العذاب، يطلق الرصاص على رأسه.

و لم يكن يبحث عن الألم للألم بحد ذاته، بل لأنه كان يعطي لفكرته عن السعادة في المستقبل، ثمناً، و بريقاً جديداً، و الألم بالنسبة له، مثله في ذلك مثل جميع شخصيات دوستويفسكي، ليس غاية، بل وسيلة.

إذ أن السيد المسيح أراق دمه و ضحى به لكي ينقذنا و يخلصنا، و لكن هل يكون علينا أن نريق دم الآخرين لكي ننقذ السيد المسيح و نخلصه؟"[٢٥]

لقد كان دوستويفسكي يتعذب في أوقات الشك، و يتسأل ماذا يحدث عندما يصبح كل شيء مباح في هذا العالم و يغيب دور الخالق و هل ثمة فضيلة و جدوى للأشياء. هذا هو باب العدمية و النتيجة هي التيه و الضياع، و ها هو يقول على لسان أبطاله و تحديداً سميردياكوف المصاب بالصرع و الابن غير الشرعي للعجوز كرامازوف،من فتاة حمقاء و خرساء، كان قد اغتصبها بالعنف و

[٢٥] ترويا، ص ٤٧١ و ص ٤٩١ و ٥٠٨، مصدر سابق

التحدي، ذات مساء: و إذا كان "كل شيء مباح" و مسموح به في هذا العالم، و ليس هنالك إله و ليس هنالك جهنم. و إذا كان الله غير موجود، فليس هناك فضيلة، و ليس لها فائدة أو جدوى. و إيفان كرامازوف هو دستويفسكي الذي ظل الله يعذبه طوال حياته. و إنكار إيفان التجديفي هو إنكار و جحود دوستويفسكي في أوقات الشك."[٢٦]

و إليكم الآن بعض الاعترافات التي كتبت عن دوستويفسكي:

" يعد دوستويفسكي بالنسبة لي من أعظم كتّاب الرواية، و هو بصورة خاصة من أشهر الكتّاب الذين تناولوا الموضوعات المسيحية في رواياتهم في جميع العصور.

تمثل حبكته الروائية و شخصياته سمو الإنسان و ضلاله و حقارته و بؤسه بصورة دقيقة، و تصوّر الإنسان البالغ الخاطئ بطريقة نمطية لا نجد مثيلاً لها إلا لدي اسكيلوس و شكسبير فقط. و نجد في رؤيته الدرامية لنعمة الله المدهشة و عذابات السيد المسيح و

٢٦ نفسه، ص ٥٢٩-٥٣٠

عذاباتنا من أجل الخلاص، العمق و المدى اللذين لم يقترب منهما إلا دانتي و بانيان.

إن الإطار المباشر لمرجعية دوستويفسكي هو الارثوذكسية الشرقية و الغليان الثقافي في روسيا في القرن التاسع عشر، و لكن موضوعه الثابت هو النموذج القلق للوجود غير المفتدي، و مجد التجسد المحزن، حيث تجد آلام البشرية كلها مكاناً في حياة و موت السيد المسيح، الفادي القائم من بين الأموات. و هنا يصور دوستويفسكي لنا بخياله الواسع الشديد الحساسية، قدرة الله و رؤيا مؤلمة و فريدة من نوعها لمأساة إنسانية. و إذا دفعتك للبكاء و التعبّد فستكون خير من وعى هذه المأساة. و إن لم تفعل، فإنها تظهر بأنك لا ترى ما تنظر إليه، و ستكون حكيماً إذا قرأت الكتاب مرة ثانية".[٢٧]

يظل دوستويفسكي الرائد الأكبر للرواية الإنسانية، فرواياته العديدة هي بحق، معين لا ينضب للعبقرية و الإلهام، بما خلّد الشعب الروسي، و من خلالها أبحر في أعماق النفس الإنسانية

[٢٧] جي آي باكر، كلية ريجنت، فانكوفر، ١٤ مارس ١٩٨٧، انظر ص ٥، دوستويفسكي و الله، تقديم إرنست جوردن، مصدر سابق

قاطبة. لقد اجتمعت في كلماته و قصصه و رواياته قيم جمالية و أدبية قلّما أن اجتمعت عند غيره من الكتّاب: الرهافة المطلقة، و الشاعرية العالية، و التجريد و التحليل العميقان، و التفاصيل الدقيقة جداً، و الواقعية الفذة. إنه ساحر كبير في مجال السرد الحكائي لا يضاهى. و هو الخبير الأول، روائياً، بالنفس الإنسانية و ترددها المزمن بين السمو و السقوط و الفضيلة و الرذيلة و الإيمان و الإلحاد. لقد حدّق ملياً في شرط الوجود البشري و صاغ آيات رائعة عن الإنسان في كل زمان و مكان.

إنه الروائي الذي سار على طريق الأنبياء، محتاراً و مهموماً، يرافقه الشياطين و المجرمون، و دوّن لنا تفاصيل المسيرة، حتى تبقى منارة عالية و مشعة للتائهين و الحيارى في ذلك الزمان و في هذا الزمان و كل زمان و مكان"[٢٨]

" لعب دوستويفسكي في حياتي الروحية دوراً حاسماً. فقد تلقيت منه- و لمّا زلت مراهقاً- ما يشبه التطعيم. و أثار فيّ الحماسة و

[٢٨] حسن بن عثمان: رئيس تحرير المجلة الثقافية. أنظر ظهر الغلاف الخارجي لكتاب" دوستويفسكي و الله، مصدر سابق

النشوة ما لم يثره كاتب أو فيلسوف آخر. و كنت في كل مراحل حياتي أشطر الناس قسمين: أولئك الذين تأثروا بروح دوستويفسكي، و أولئك الذين كانوا عن هذه الروح غرباء. و إذا كانت المشكلات الفلسفية قد تمثلت لوعيي في وقت مبكر جداً، فما ذلك إلا بفضل تلك" الأسئلة اللعينة" التي أثارها دوستويفسكي بكل تأكيد. و ما من مرة قرأته فيها، إلاتكشّف لي منه وجه جديد. و في شبابي صدمتني على وجه الخصوص"أسطورة المفتش الأكبر" إلى درجة أنني عندما تحولت لأول مرة إلى السيد المسيح، لاح لي في الصورة التي اتخذها في تلك"الأسطورة". و كانت فكرة الحرية تقوم دائماً عند اساس تصوري و ادراكي للعالم. و في هذا الحدس الأصلي للحرية عثرت على دوستويفسكي و كأنه في الوطن الذي اختاره لنفسه. ومنذ ذلك الحين استولت عليّ زمناً طويلاً الرغبة في أن اكرسّ له كتاباً بأكمله. و أخيراً دفعتني المحاضرات التي القيت في الندوة التي خصصت لدوستويفسكي في شتاء ١٩٢٠-١٩٢١ إلى أن اجمع شتات تأملاتي عن هذا الموضوع. و هكذا وضعت هذا

الكتاب الذي أحاول فيه الكشف عن تصور دوستويفسكي للعالم فحسب، بل حاولت أن اضع فيه أيضاً شطراً كبيراً مما يؤلف تصوري الخاص عن العالم.

ذلك أن دوستويفسكي لم يكن فناناً عظيماً فحسب، بل كان مفكراً أيضاً، و صاحب رؤية عظيماً في رؤيته. و كان جدلياً عبقرياً في جدله كذلك، كما كان أعظم ميتافيزيقي انجبته روسيا.. إنه يحمل بين جنبيه نفحة من روح هيراقليطس: كل شيء نار و حركة و تضاد و صراع. و ما الأفكار سوى موجات من النيران، و ليست مقولات متجمدة أبداً، كل فكرة عند دوستويفسكي ترتبط بمصير الإنسان، بمصير العالم، بمصير الرب،... و لأن هذه الفكار وجودية(انطولوجية) من حيث إنها تحتوي على جوهر الوجود نفسه.

إن مؤلفات دوستويفسكي مأدبة حقيقية للفكر، و هؤلاء الذين يرفضون المشاركة فيها، و الذي تنكر أفكارهم المتشككة فعالية كل فكر يحكمون على أنفسهم بوجود ضيق كئيب من الناحية الروحية.

ودوستويفسكي في نظر البعض مدافعاً عن" المستذلين و المهانين" و هو في نظر البعض الآخر"موهبة قاسية"، و هو في نظر آخرين أيضاً نبي المسيحية الجديدة."[٢٩]

فقد كتب الأديب النمساوي ستيفان زيفايج(١٨٨١-١٩٤٢):" إن دوستويفسكي بالنسبة لنا اليوم أكثر من فنان، إنه مفهوم روحي سيكون عرضة للتفسير و الإدراك المرة تلو المرة. فصورة الكاتب الروسي تتغلغل اليوم في جميع مجالات الحياة الروحية".[٣٠]

و الآن لنرى كيف رثى كاتبنا صديقه الحميم شاعر روسيا العظيم نيكراسوف عند مثواه الأخير:

" احتشد الناس قرب منزل نيكراسوف، و اصطفت العربات بكافة أنواعها و أشكالها. و كانت الشموع مشتعله قرب رأس المرحوم في القاعة التي تمدد فيها، و من خلفه الأنالوين(الكرسي الذي يوضع عليه الكتاب المقدس أثناء القراءة)، و قرأ الشماس مرتلاً جزء

[٢٩] نيقولا بردياف، رؤية دوستويفسكي للعالم، ترجمة فؤاد كامل، ص ٧ و ١٢ و ١٤ ،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦

[٣٠] أنظر الأخوة كرامازوف، الجزء الأول، ص ٦

البسملة من الكتاب المقدس. و كانت أثار آلام الموت التي عانى منها المسجى ما تزال عالقة على وجهه.

اقترب دوستويفسكي و قبل يد نيكراسوف الباردة، و انحنى تكريماً له، ثم ابتعد جانباً ليفسح الطريق للآخرين. و أراد أن يعزي زوجة المرحوم السيدة زينادانيكولايفنا، لكنه لم يقدم على ذلك عندما شاهد وجهها الطافح بالحزن. بأي شيء يواسيها؟

و قرأ المبسمل بشجن: هذا الإنسان، لن يخطىء بعد الآن. و قف دوستويفسكي و رسم أشارة الصليب على صدره ثم خرج بهدوء... لم يستطع دوستويفسكي العمل في هذه الليلة أيضاً. هذا الإنسان لن يخطىء بعد الآن. خافت آنا غريغوريفنا أن تترك زوجها وحده في المكتب، فدخلت بهدوء و جلست على طرف الديوان.

لقد كانت تعرف جيداً كم كان دوستويفسكي يقدّر الشاعر المرحوم- كانت خائفة أن يقع في نوبة الصرع من حزنه الحاد على

موت نيكراسوف. و لم يقل أية كلمة عندما دخلت المكتب، سوى أنه أومأ برأسه مرحباً بقدومها.

على الطاولة كانت خطة عمل لعشر سنوات، مكتوبة بتاريخ ٢٤ كانون الأول. كانت أفكاره تخفق بشده في دماغه: لقد تعذب نيكولاي الكسيفتش نيكراسوف و انتهى... أما أنا فلدي خطة لعشر سنوات. طبعاً، حبذا لو عشت أكثر... لكن هل يمكن توقع، متى يحدث ذلك؟ متى تأتي اللحظة المحتمة؟..

يمكن أن يكون الموت جاثماً هنا، خلف هذه الكنبة.. لا، لا يستطيع فيدور ميخائيلوفتش العمل هذه الليلة.

و يقترب دوستويفسكي من أحد رفوف الكتب، و يتناول ثلاثة كتب للشاعر نيكراسوف، يحملها بكل حنان. يفتح الجزء الول، و يبدأ بقراءة اشعار نيكراسوف بصوت مسموع.

تحبس أنا غريغوريفنا أنفاسها و تستمع. كان يقرأ أشعار نيكراسوف بصوت خاص، يمتص تلك السطور، و في نفس الوقت يتذكر أوقات لقاءاته مع المرحوم، بالدقائق.

تذكر أيام عمله في رواية" الناس الفقراء" و تصور كيف هرع إليه الشاب الشاعر منفعلاً مع غريغور يفتش، بعد أن قرأ مخطوطته" الناس الفقراء" و بأي صدق، بأي حب حضنه- نعم لقد حضن نيكراسوف دوستويفسكي الحائر آنذاك، لا يستطيع أن ينسى ذلك الموقف. عندما قال نيكراسوف: أنت لست موهوباً فقط، بل أرفع بكثير من ذلك.

طوق دوستويفسكي ركبتيه بيده و شد عليها. و عيناه جافتان، كان البكاء في قلبه، هذا أشد ألماً، إذا كان البكاء في القلب.

كان الصقيع شديداً و السماء متلبدة بالغيوم، و البيوت في الثلاثين من شهر كانون الأول. و موكب الجنازة يسير ببطء على شارع ليتني.

امتلأت المقبرة بالناس، الذين أصغوا إلى كل كلمة قيلت في صمت و إجلال: لمن هذا الصوت الرنان المهتاج؟ سأل دوستويفسكي بنفسه و نظر إلى الخطيب. كان الخطيب طالباً ذا وجه ذكي، جميل و ملهم، كما وصفه دوستويفسكي. و تكلم الخطيب عن نيكراسوف

كديموقراطي عظيم و صديق بيلينسكي،... نيكراسوف الذي جسد في أشعاره، ليس فقط آلام الشعب بل حنقه و شجاعته و يأسه أيضاً. و عم ضجيج مؤيد لكلام الخطيب،عندما أنهى كلمته (الخطيب هو الطالب غ.ف. بليخانوف)

بدأ دوستويفسكي كلمته بصوته الضعيف المخنوق. و تحدث في كلمته عن نيكراسوف، كشاعر شعبي، كشاعر حزين. و قال أنه سار على الدرب، الذي سار عليه بوشكين، و قال أننا نضعه بعد بوشكين و ليرمونتوف مباشرة لأهميته. و عند هذه الكلمات عم الصراخ مخترقاً السكينة: أسمى، أعلى،..

و عاد دوستويفسكي إلى بيته، لم يكن راضياً عن نفسه" كان عليّ أن لا أقول ذلك، لا يجوز مناقشة من أعلى و أرفع قرب قبره المفتوح". و شعر بألم في صدغيه، و في روحه حزن و غموض."[31]

و قبل ختام هذا التقديم ، أريد أن أقدم كل التقدير و خالص الشكر و العرفان إلى الرجل الذي نقل إلينا أعمال دوستويفسكي الكاملة،

[31] ف. جيلزنياك، قصص من حياة دوستويفسكي، ترجمة ماجد علاء الدين و محمد بدرخان، ص ١٢٨-١٣٤ دار الكتاب العربي ١٩٨٧

هذا الرجل الذي أخذ على عاتقه ترجمة جميع روايات كاتبنا بلغة سلسة و أسلوب شيق و كأن دوستويفسكي نفسه هو الذي يكتب إلينا بلغة الضاد. إنه الأديب و المترجم و الدبلوماسي السوري **الأستاذ الدكتور سامي الدروبي**(١٩٢١-١٩٧٨) رحمه الله و طيب الله ثراه.

حصل الأستاذ الدكتور سامي الدروبي على الدكتواره في علم النفس من جامعة القاهرة عام ١٩٦١. عمل مدرساً للفلسفة في مدينة حمص ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق، و أستاذاً للفلسفة فوزيراً للمعارف ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغوسلافيا و مصر و اسبانيا و مندوباً في جامعة الدول العربية.

له عدة أبحاث نظرية و دراسات فلسفية و نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب و التعليم.

و ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي(١٨ مجلداً) و مؤلفات ليف تولستوي(٥ مجلدات) و أعمالاً لبوشكين و ليرمنتوف و تورجنيف و كورولينكو. أما بالنسبة للأوسمة التي نالها هي أولاً،

حصوله عام ١٩٦٤ على وسام الرئيس اليوغسلافي الراحل تيتو كسفير و كاتب و أديب، ثانياً، منح في عام ١٩٧١ وسام من الرئيس الراحل حافظ الأسد لجهوده في إنجاز الميثاق الثلاثي، و إعلان الدولة الاتحادية بين مصر و سوريه و ليبيا. تكريمه في الذكرى الثانية لوفاته في المركز الثقافي العربي بمدينة حمص و تسمية قاعة المحاضرات في المركز الثقافي باسم الفقيد الدروبي، و أخيراً، منح جائزة"لوتس" بعد المات(١٩٧٨). .

أما في تأبينه، فقد جاء في كلمة العماد الركن مصطفى طلاس الآتي: "سأعود معكم إلى بداية كلمتي لأقوم بمراجعة صغيرة و تقديم كشف بالأعمال الصالحة التي نهض بها فقيد العروبة لنرى إذا ما كانت هذه الأعمال الجليلة تكفي لتخليد هذا الرجل إلى قيام الساعة؟

أعتقد أنه لا يوجد اثنان يختلفان في هذه البديهية، فلو أخذنا أعمال فقيدنا الغالي" ترجمة المؤلفات الكاملة لدوستويفسكي" إلى اللغة

العربية و رمينا كل ما عمله غير ذلك في البحر لوجدنا أن هذا العمل الضخم قمين بتخليد صاحبه أبد الدهر..."

و نخلص على أن أوجه الشبه أو القاسم المشترك بين دوستويفسكي و الدروبي، هو أن الأول كان يكتب رواياته و هو يملي على زوجته ذارعاً غرفته جيئة و ذهاباً و تقوم هي بكتابتها بلغة الأختزال ثم تعيد كتابتها كي يقرأها و من ثم يقوم بدوره بتصحيح أو تعديل أو تنقيح ما ورد في ذلك، بينما الثاني، هو الآخر كان يمسك النص الفرنسي بيده و يملي على زوجته بالعربية فتكتب و كانت هذه الطريقة في العمل توفر الكثير من الوقت. و في آخر أيامه كان يعاني من مرض في القلب مرضاً لا يمكنه أن يستلقي على سريره أثناء النوم، كان لا بّد له أن يبقى جالساً و هو نائم. لقد تحدث الكثيرون عن عظمة هذا الإنسان و عطائه المنقطع النظير، إلا أن قليلين جداً الذين لاحظوا ذلك الملاك الذي أحاطه بعنايه و أعطاه الحب و الوفاء و الإخلاص و العناية. فلقد وقفت زوجته وقفة الأبطال، فأنجبت عظيماً لوطنه، و الحال، تبدأ الزوجة حبيبة و تتحول إلى أم

الرجل الذي تزوجته، إنها تنجبه إنساناً آخر من خلال حبها له، فلقد شهدت أقسى الظروف و تصدّت لها بقلب من نور أحاط سامي و لفه بشفافة، و أعطاه زاداً في عمل صارم أفاد الوطن و الأجيال على مدار السنين!! و من باب المصادفة هو أن الدروبي ولد بعد مئة عام من ميلاد دوستويفسكي.

فلسفة الألم: [٣٢]

سنتطرق في هذا الجزء البسيط إلى فلسفة الألم، أو بتعبير أدق، إلى"حكمة الألم"، إذا كان ثمة حكمة للألم؛ لأن الإنسان في تاريخه الطويل ليس إلا باحثاً عن المتعة أو اللذة التي هي نقيض الألم. و لكن الحكمة تأتي من أن الناس في قرارة أنفسهم يشعرون" بأن الآلام التي عانوها هي التي كونت معظم الجانب الشخصي من وجودهم. .. أي أن الخبرات الأليمة التي يعانيها المرء لا بّد من أن تندمج في صميم وجوده، فتصبح بذلك ثروة باطنة تدخرها الذات للمستقبل، و تتسلح بها ضد ما يستجد من هجمات".

لذا نجد أن الفكر الأفلاطوني و ما قامت عليه الفلسفة المسيحية فيما بعد، باعتبار أن " الألم أداة تطهير، و أن آلام الحياة هي الكفيلة بأن توجه بصرنا الروحيّ نحو الخبرات العليا و القيم السامية، فترتفع بنا إلى مستوى الطهارة القلبية الحقة التي هي ينبوع السعادة الروحية العميقة". و هذا ما ما ذهب إليه سورين كيركجور في تفسيره

[٣٢] اعتمدنا في هذا الجزء على ما جاء في كتاب" المشكلة الخلقية"، زكريا إبراهيم، الفصل العاشر: خبرة الألم ص ٢٠٥- ٢٢١

للمسيحية: الألم هو العلاقة التي تميّز الإنسان المتدين، لأن الألم يعني العزلة الروحية، و الحياة الباطنية العميقة، و الشعور بالتناقض الحادّ بين المتناهي و اللامتناهي".

" الألم هو الذي يكشف لنا عن وجودنا الفردي في حدة قاسية تتمزق معها الرابطة التي كانت توثقنا بالكون. .. و هو الذي يتيح لنا الفرصة لأن نعاني تجربة الوحدة على حقيقتها.

و الألم إن هو إلا مناسبة لشعور الذات بنفسها، من حيث هي متأصلة في أعماق الوجود العام، حاضرة أمام العالم الخارجي. و هذا الشعور هو الذي يجعلنا نميل إلى الوحدة في اللحظة التي نتألم فيها، لأننا نشعر عندئذ بانفصالنا عن الكون، على الرغم من تأصلنا في أعماق الوجود العام".

أما الألم بالنسبة لهيغل" سوى المظهر الشعوري لهذا التناقض الذاتي الذي تستشعره الذات على صورة نقص داخلي أو عوز باطني، لا مجرد ظاهرة خارجية أو واقعة موضوعية".

و تمشياً مع "حكمة الألم"، نجد ما وصل إليه الفيلسوف الفرنسي رنيه لا سن على الألم قد يعود بالخير على الذات، حينما تتمكن من تمثله،... و معنى ذلك فإن القدرة على التألم هي أمارة طيبة: إذ ربما كان أعضل داء يمكن أن تصاب به النفس هو أن تصبح غير قادرة على التألم! ... إن التألم ليس مرضاً على الإطلاق، و إنما هو بالأحرى نقاهة النفس، أو هو على الأصح السبيل إلى تحقيق غبطة أعمق و سرور أعظم!"

" و حين يخرج المرء من معركة الآلام ظافراً منتصراً، فإنه لم يجد من بعد شيئاً عسيراً لا طاقة له به: لأنه سيكون عندئذ قد اختزن في باطنه من الطاقات الروحية ما يستطيع معه مواجهة أقسى المحن و أقصى التجارب! و لا غرو، فإن الإنسان الذي انصهرت نفسه في بوتقة الآلام هو- على حد تعبير نيتشه- كالقوس المشدود الذي ينتظر السهم! أو هو في الحقيقة إنسان مجرب قد زودته الحياة بأسمى قوة أخلاقية". و يضيف نيتشه على" أن الألم مثله في ذلك كمثل اللذة- هو أداة فعالة من أدوات المحافظة على بقاء النوع".

و بيت القصيد هو أن" الألم هو المعلّم الخاص الذي يلقن الإنسان درساً لا ينساه في الوعي بالقيم". و ها هو الملك كانوت يلجأ إلى" قتل والده العجوز الذي فقد وعيه تماماً، و ما من رقيب يمكن أن يسجل عليه فعلته، بل ما من قرائن تشهد حتى بإمكان وجود جريمة! و لكن شبح الجريمة يظل يطارده حتى و هو في أوج عظمته، فلا يقوى هذا الملك العظيم على إخماد صوت ضميره، أو تخفيف حدة شعوره بالندم و الألم و العذاب النفسي المقيم!... و الحق أن تأنيب الضمير ليس مجرد استرجاع للماضي الأليم في الحاضر، و إنما هو تعبير عن حالة نفسية معقدة تقوم على التناقض الحاد و الازدواج الأليم..."

و عندما خاطب المعلم بوذا الرهبان تلفظ بمرارة حقيقة الألم، و عّبر عنه بالآتي: "الولادة ألم، الشيخوخة ألم، المرض ألم، الموت ألم. إذا اجتمعتم بشخص لا تحبونه، فذاك ألم. إذا افترقتم عن شخص تحبونه، فذاك ألم. إذا لم تتحقق رغباتكم، فذاك ألم. الكلف بالجسد، بالأحساسيس، بالأشكال، بالمؤثرات، بالمعرفة، هو ألم بألم بألم".[٣٣]

[٣٣] فاردينان هارولد، حياة بوذا، تعريب فيلب عطا الله، دار الروائع الجديدة-بيروت ١٩٧٥

و ها هي صرخة دوستويفسكي الوجودية المتعلقة بالألم و الإيمان تأتي على لسان ستيفان تروفيموفتش في رواية"الشياطين": – إنني أؤمن بالله إيماني بموجود لا يعي ذاته إلا فيّ أنا... فأنا لست مسيحياً. أنني أقرب إلى أن أكون وثنياً من الزمان القديم، على طراز جوته العظيم أو الإغريق القدماء.

أما عن العبادات كالصوم و الصلاة و ما إلى ذلك، فأنني لا أفهم لماذا يتدخل الناس فيما لا يعنيهم؟

هناك فئتان من الناس: الذين ينتحرون بسبب عذاب كبير، أو ينتحرون غضباً، أو يكونون مجانين، أو ينتحرون لأي سبب آخر... و هؤلاء ينتحرون فجأة، و هم لا يخطر الألم ببالهم كثيراً.

- و لكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم؟ إن الإنسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة. هكذا أفهم أنا الأمور. ذلك ما أرادته الطبيعة.

- هذا جبن، و تلك هي الخدعة. الحياة ألم. الحياة رعب. الإنسان شقي،.. الحياة ثمنها العذاب و الرعب.

- فهذا الإله موجود إذن في رأيك؟

- ليس موجوداً، لكنه موجود. إن الصخرة ليس فيها ألم، و لكن الألم هو في الخوف من الصخرة. الإله هو عذاب الخوف من الموت. ... فالإنسان الذي سينتصر على الألم و الخوف سيكون هو نفسه الله. و سوف تبدأ عندئذ حياة جديدة. عندئذ سوف يظهر الإنسان الجديد... و سوف يقسمون التاريخ عندئذ إلى عهدين: عهد يمتد من الغوريللا إلى إنعدام الإله، و عهد يمتد من إنعدام الله،..."[٣٤]

و ثمة تساؤلات تتعلق بالحياة و الموت و بالحياة الآخرة و تأثر دوستويفسكي برؤيا القديس يوحنا و توقف الزمن و مصير الإنسان و غيرها من التساؤلات التي تعصف بأبطاله بصورة لا تخلو من الشيطنة و هاوية الإلحاد التي يطلق عليها دوستويفسكي نفسه بجحيم الشك، كما سبقت الإشارة. و هكذا "سأل ستافروجين: هل تحب الأطفال؟

فأجاب كيرلوف، و لكن بلهجة ليس فيها أكتراث كثير: نعم

[٣٤] دوستويفسكي، الشياطين، ترجمة سامي الدروبي، الجزء الأول، ص ٦٤ ، ص ١٨٨ و ص ١٩٠

قال ستافروجين: فأنت إذن تحب الحياة أيضاً؟

- نعم أحب الحياة ... لماذا؟

- و لكنك عازم على الانتحار.

- و ما العلاقة بين الأمرين؟ الحياة شيء، و الموت شيء آخر. الحياة موجودة و الموت غير موجود.

- أأنت تؤمن إذن بالحياة الآخرة الأبدية؟

- لا، لا بالحياة الآخرة الأبدية، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه الأرض. هناك لحظات... إن المرء يصل إلى لحظات يتوقف فيها الزمان فجأة، فيصبح الحاضر أبدية.

- ... في رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن الزمان لن يوجد بعدئذ.

قال كيرلوف: أعلم ذلك. و هذا صحيح. قيل بوضوح و دقة. حين يكون الإنسان بكامله قد بلغ السعادة، فإن الزمان لن يوجد بعدئذ، لأنه لن يكون ضرورياً بعد ذلك.

- أين عساه يختفي؟

- لن يختفي في أي مكان، ليس الزمان شيئاً له حيز، بل هو فكرة ستنطفيء...

الإنسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد...

قال كيرلوف:

و الذي سيعلّم الناس أنهم جميعاً طيبون أخيار، فذلك سوف يختم تاريخ العالم.

- إن الذي علّم الناس ذلك قد صلب.

سوف يجيء، سيكون اسمه الإله الإنسان. الإنسان الإله؟"[٣٥]

و ها هي النظرة الوجودية و مشكلة الإنسان تحديداً تأتي على لسان الكاهن الراهب الشيخ زوسيما كما دوّنها أليوشا":... لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر المرء بأنه أخ لكل إنسان حقاً. لن يستطيع البشر في يوم من الأيام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل لا عن طريق العلم و لا عن طريق المنفعة. إن كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب؛ و إن الحسد و الحقد سيسودان فيدفعان البشر إلى أن يفني بعضهم بعضاً. ...

---

[٣٥] المصدر نفسه، ص ٣٩٥- ٣٩٨

إن كل إنسان في هذا العصر يجهد في سبيل أن يتذوق الحياة كاملة ساعياً في سبيل ذاته، مبتعداً عن أقرانه.

و لكن هيهات أن تؤدي هذه الجهود إلى تذوق الحياة كاملة، فهي لا تقود إلا إلى فناء النفس فناء كاملاً، لأن الإنسان بدلاً من أن يتفهم ذاته تفهماً كاملاً يستغرق في عزلة تامة.

إن الإنسان يكّدس الخيرات في العزلة، و تسره القوة التي يحسب أنه يملكها بذلك، قائلاً لنفسه إن أيامه قد أصبحت بذلك مؤمنة مضمونة؛ إنه لا يرى، لحماقته، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز قاتل.

... و يفقد إيمانه بالتعاون، و ينسى في عزلته القوانين التي تحكم الإنسانية حقاً، و ينتهي من ذلك إلى أن يرتعد في كل يوم خوفاً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. لقد غاب عن ذهن البشر تماماً في أيامنا هذه أن الأمن الحقيقي للإنسان في الحياة لا يتحقق بجهده الفردي المنعزل، و إنما باتحاد الجهود البشرية العامة و تناسق الأعمال الفردية . إن عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتماً

في يوم من الأيام، و سيفهم البشر دفعة واحدة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية،....".[٣٦]

و يستمر دوستويفسكي على لسان إيفان كارامازوف:" إن حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست إلى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد، و إنما إلى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع، و يمكن أن ينحني لها الناس كافة. فهذه الحاجة إلى الاشتراك في العبادة هي بعينها الهمّ الرئيسي الذي يعذب كل فرد و يعذب الإنسانية جملة،...

إن سر الوجود الإنساني و مبرره ليس في إرادة الحياة، بل في الحاجة إلى معرفة السبب الذي يدعو الإنسان إلى الحياة. فالإنسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يوجد في العالم بل يؤثر أن يدمر نفسه، و لو ملك الخبز وافراً كل الوفرة. تلك هي الطبيعة الإنسانية. ... لا شيء يخلب اللب للوهلة الأولى أكثر من حرية

[٣٦] دوستويفسكي، الأخوة كارامازوف، الجزء الثاني، ص ٢٩٣-٢٩٤

الضمير، و لكن لا شيء في الواقع يعذب الإنسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية".[٣٧]

و تأتي صرخة الألم التي هتف بها ميتيا(دميتري كارامازوف) على جميع الحضور في القاعة قبيل اقتياده إلى السجن، في ذلك اليوم الذي اتهم على أنه الشخص الذي قتل أباه، جاءت صرخته لتوقظ تلك النفوس المريضة لتعّبر عن ألم كان مدفوناً و غيرة جامحة : " لحظة أيها السادة! نحن جميعاً قساة، نحن جميعاً وحوش مفترسة، و لكنني أنا – أقول هذا جهاراً على رؤوس الأشهاد هنا- أنذل الناس، و أدناهم طراً. إنني أسلّم بهذا. و ما من يوم انقضى في حياتي إلا و حلفت فيه، و أنا ألطم صدري، لأصلحنّ أمري و لأقوّمن عوجي، و لكنني كنت أهوى إلى أخطائي منذ الغد. إنني أدرك اليوم أن رجالاً مثلي محتاجون إلى أن يضربهم القدر، محتاجون إلى أن يضربهم القدر تهزّ كيانهم و توقظ في أنفسهم قوى الحقيقة العليا. ما كان لي أبداً، أبداً، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسي! و لكن الصاعقة قد نزلت عليّ. و أنا أقبل عذاب الاتهام الموجة إلي، و أقبل العار الذي

[٣٧] نفسه، ص ١٩٨-٢٠٠

تلطخ به شرفي أمام الناس. أريد أن أتألم، و أن أتطهر بالألم. لأنني سأفدي نفسي بالألم، أليس هذا صحيحاً أيها السادة؟ و لكنني أؤكد لكم آخر مرة: أنني لم أسفح دم أبي! إنني أقبل العقاب لا على قتله، بل على أنني أردت أن أقتله، و ربما كنت سأقتله في النهاية... و لكنني سأكافح لدفع التهمة عن نفسي، فاعلموا هذا! سأدافع عن نفسي حتى النهاية، و سيقرر الرب مصيري. إلى اللقاء أيها السادة. و اغفروا لي ما ظهر مني من غضب أثناء الاستجواب. آه... ما كان أغباني عندئذ! بعد بضع ثوان لن أكون إلا سجيناً؛ و لآخر مرة إنما يمد دمتري كارامازوف يده إليكم مصافحاً مصافحة رجل حر طليق. و إني إذ أودعكم إنما أودع العالم..."[38]

و يظل الألم شيء عظيم، بل في الألم فكرة عظيمة عند قاضي التحقيقات بورفيري بتروفتش، فصيحاته كانت تنفذ إلى سريرة راسكولنيكوف نفوذاً عميقاً حيث كان يشعر راسكولنيكوف خلالها بانفعال شديد و اضطراب لا يغالب:" ... هل تعرف يا روديون رومانوفتش مدى ما لفكرة الألم من تأثير في بعض الناس؟

[38] نفسه، الجزء الثالث، ص ٣٦٦

إن هناك أناساً يحبون أن يتألموا لا في سبيل شخص من الأشخاص فحسب، و إنما هم يحبون أن يتألموا و كفى، لأن على المرء أن يتألم، و أن يقبل الألم و يرتضيه، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات ما...."[39]

و ما كان يؤلم راسكولنيكوف في الواقع هو"الجراح التي أصيبت بها كبرياؤه! ... ماذا يفيده و ماذا يجديه أن يستمر في الصراع و الكفاح؟ أيحيا من أجل أن يوجد؟ ألا أنه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحي بوجوده ألف مرة في سبيل فكرة، في سبيل أمل، بل و في سبيل تحقيق نزوة! إن الوجود في حد ذاته لم يكن كافياً له في يوم من الأيام. ... و لعل عنف رغباته كان وحده السبب في أنه ظن نفسه إنساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره.

و كان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال: لماذا لم ينتحر حينذاك؟ لماذا، حين مال على ماء النهر، آثر أن يشي بنفسه؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة، يصعب التغلب عليه إلى هذه

[39] دوستويفسكي، الجريمة و العقاب، ترجمة سامي الدروبي، ص٢٨٠، الجزء الثاني، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠١٠

الدرجة من الصعوبة؟ إن سفدريجايلوف الذي يخشى الموت، قد استطاع مع ذلك أن ينتصر على حب الحياة هذا![40]

[40] نفسه، ص ٤١٢-٤١٤

مشكلة الألم عند دوستويفسكي

" لقد عذبني الله طوال حياتي"، هكذا يهتف دوستويفسكي، متأرث العاطفة، على لسان كيريلوف، المناضل ضد الله، أو الإنسان الله، الذي وصفه لنا الكاتب الروسي الكبير في قصته الرائعة" الأبالسة". ذلك أن كل إنسان لم يقف تطوره الباطن و نموّه الفكري عن التقدم لابد أن يجد نفسه يوماً، إن عاجلاً أو آجلاً، أمام هذه القضية المضنية، ألا و هي قضية معنى الحياة و غاية الوجود.

و هو يوفر عن نفسه عناء البحث الشخصي بمقدار ما يقبل، بصورة منفعلة، القيم التي يفرضها عليه الدين الرسمي أو الطبقة الاجتماعية التي ينتسب إليها، فيما إذا كان بعيداً عن كل إيمان ديني، فلا ينبثق السؤال المرهق أمام عينيه إلا عندما يحيل المعطيات المقبولة من أشباهه بشأن الأمور الأساسية مسائل يجب أن تحل من الداخل رغم ما تتضمنه من أخطار تقع مسؤوليتها الجسيمة على عاتقه وحده.

و تبلغ هذه العملية المستهدفة تحقيق الاستقلال الشخصي أوجهاً عند دوستويفسكي، لأن هذا الإنسان لم يقبل قط بالحلول السطحية السهلة التي ربما حملت الطمأنينة إلى قلبه المضني، بل أنه لم يكلّ قط، على العكس من ذلك، عن محاربة ذلك التفاؤل المتساهل الذي يرى الكثيرون به مشكلة التقدم، و الغرب بصورة خاصة، كما لم ينسجم أبداً مع مختلف النظريات الاجتماعية و سواها، خائفاً على الوجدان البشري من محاولاتها الرامية إلى التسوية بين البشر و تصييرهم سعداء عن هذه الطريق، حتى على حساب سموهم الروحي الذي سيتدنى في مثل هذه الحال.

و نحن واجدون احتجاجه الأول على مثل هذا المذهب العقلي المتفائل في كتابه :" رسائل من الحضيض"، حيث يدافع عن الشخصية الإنسانية كشيء مستقل بذاته، أو بالأحرى كشيء يجب أن يصر على نيل حقوقه الفردية الخاصة بدون أن يعزل نفسه عن الجماعة في الوقت ذاته. ذلك أن الفرد الذي يظل أبداً في دائرة الجماعة، في دائرة التقاليد الاجتماعية الجامدة، لا يمكن أبداً أن ينمو

و ينتهي إلى الصيرورة شخصية إنسانية كاملة، كما أن شخصية منعزلة عن المجموع منفردة عن بقية الجنس البشري، لمحكوم عليها بالجوع الروحي و الانهيار الاخلاقي بحكم عزلتها القاتلة بالضبط. و هكذا تصبح قضية الشخصية الإنسانية قضية الجنس البشري كمجموع، أو أن كلتا القضيتين بالأحرى قضية واحدة ينظر إليها من وجهيها المتقابلين.

و لقد أدرك دوستويفسكي ضرورة تلك الحاجة اللاعقلية عند الإنسان إلى الخروج عن جلدته الخاصة و الاحتكاك بأشباهه من البشر عندما كان سجيناً في سيبريا. إنما هذا الاحتكاك لا يعني عنده الذوبان في الجماعة، بل الاستقاء من معينها بالأحرى في سبيل تنمية الذات و السمو بها. و لأن الإنجيل كان عزاءه الوحيد في تلك السنوات الجهنمية التي قضاها في المنفى، و لأنه ابن شعب قد عذبته قضية الإيمان دوماً، فقد تم اقترابه من المشكلة المطروحة أمامه على المستوى الديني في المحل الأول. و ههنا ابتدأت متاعبه.

ذلك أن قلب الرجل كان يضم من الريبة ما يكفي كي يمنعه عن قبول الحياة بعفوية الإنسان الابتدائي أو الإنسان المتدين. و هكذا فقد صيّر الحياة مشكلة عندما عجز عن قبولها عفوياً. و الحياة عندما تصبح مشكلة تتطلب معنى يرضي ذاتينا العقلية و اللاعقلية في وقت واحد، حتى لقد ينقلب معنى الحياة هذا في مرحلة من المراحل أمراً يفوق الحياة نفسها في الاهمية، بحيث قد يرفض المرء الحياة بمجموعها، ما لم يحقق معناها مطالب وجدانه الرفيعة و لا يخيبها.

و هنا تنبثق أمامنا المسألة التالية: أهناك قيمة مطلقة لا يتطرق الشك إليها، يمكن أن تتوجه نحوها إرادة الإنسان و جهوده في سبيل تحقيق ذاته و تحقيق معنى حياته في الوقت ذاته؟ و هل يمكن أن تكون هذه القيمة إلا كائناً مطلقاً، أو قيمة موهوبة من قبل هذا الكائن المطلق و مقدسة منه؟ و هل يوجد هذا الكائن المطلق الذي هو الله؟ إن إيفان كارامازوف، و معه سائر أبطال دوستويفسكي، يطرح السؤال على الشيطان بكلمات واضحة:" هل الله موجود، نعم أم لا؟" و هو لا يطرح السؤال من وجهة نظر لاهوتية، بل من

وجهة نظر"نفسانية" بالأحرى، على اعتبار الله عنصراً فعالاً في الوجدان البشري، عنصراً يفعم هذا الوجدان بأشواق و مطامح رفيعة جداً، لكن لا يوفر عنه الشكوك و العذابات المريرة في الوقت ذاته. و إن دستويفسكي لراغب أيضاً في معرفة نصيب هذا العنصر الفعال من الواقعية، يعني إن كان الله موجوداً بصورة موضوعية، خارجاً عن نطاق فعالياتنا النفسانية و مستقلاً عنها، مدركاً أن الجواب على هذا السؤال الذي أضناه طوال حياته يستطيع وحده أن يقرر مصير الإنسان في هذه الأرض الدنيا. فإن كان هذا الجواب سلبياً، فإن وجودنا ينقلب من وجهة النظر الروحية، و ليس الاجتماعية، شيئاً طارئاً و مجرداً عن كل معنى، لأن وجداناً مخلصاً تجاه ذاته لن يجد أمامه في مثل هذه الحال إلا أحد سبيلين، فإما أن يرفض الحياة و العالم، و أما أن يجعل من الإرادة البشرية القانون الاسمى الذي يدين به، و من الذات البشرية الالوهية الوحيدة التي يؤمن بها.

و هكذا يعلن كيريلوف، في "الابالسة": إذا كان الله موجوداً، فالكل إرادته. و أنا لن أستطيع فراراً من إرادته هذه! و إن لم يك موجوداً، فالكل إرادتي، و أنا مدعو إلى اظهار هذه الإرادة الذاتية.. لأن كل إرادة قد أصبحت إرادتي وحدي". و هكذا الشيطان يهمس في إذن إيفان أيضاً:" ما دام الله غير موجود، فإن الإنسان الجديد يستطيع أن يصبح الإنسان الله بكل سهولة؛ و أن يتخطى مرتاح الضمير سائر حواجز الأخلاق القديمة، أخلاق الإنسان العبد. فيما إذا رأى ضرورة ذلك. أما حيث يقف الله، فالمكان يكون مقدساً".

و من وجهة النظر هذه"يصبح كل شيء مشروعاً" كما يقول إيفان، و تنقلب الأخلاق إلى مجموعة من العادات و المحرمات، من القواعد التي يفرضها القانون، من التقاليد الاجتماعية و المصالح الطبقية ليس غير. أما الجنس البشري فلا يعود عضوية عظيمة متماسكة، بل يصبح منظمة مبرئ بكل بساطة، تسيرها الحاجات الاقتصادية و المراسيم" المستهدفة السعادة العظمى للعدد الأعظم". هذا الجنس البشري سيصير إذن إلى فوضى، إلى حرب

مجنونة يشنها الجميع على الجميع، و الإنسانية ستقع فريسة لقانون الغاب، لأن" الفكرة العليا" التي يمكن أن تجمع بين الناس و توحدهم قد تلاشت، و كل فرد لا يعني بعد الآن، حسب تعبير دستويفسكي نفسه، إلا بأن يعيش يومه مرسلاً الآخرين إلى الجحيم، و إن كان يحظى بما يكفي من الذكاء كي لا يقع تحت طائلة القانون، فإنه سيقتل إذن و يسرق و ينهب، أو يعيش على حساب الآخرين أيضاً، و مادام كل شيء سيذوب و يتلاشى بعد القبر مباشرة.

إذن فعدم وجود الله، هذا العدم الذي يعني"مشروعية" كل شيء يصبح انكاراً لسائر القيم. ماذا يبقى للإنسان بدلاً من الإرادة الموجهة نحو القيمة العليا إلا الإرادة من أجل الإرادة و نحوها؟ و هذا يعني نسبية الأخلاق على المستوى الاجتماعي، أما على المستوى الروحي فيعني ذلك الفراغ الأخلاقي الفاجع الذي تردى في راسكولينكوف و سفيدر يغائيلوف (الجريمة و العقاب)، و ستافروغين(الأبالسة)، و إيفان كرامازوف نفسه حتى درجة ما،

هؤلاء الذين يفتشون عن عالم يقع" ماوراء الخير و الشر"، فلم يجدوا سوى الهاوية التي أبتلعتهم دون رحمة أو شفقة.

و لا تقف المشكلة عند هذا الحد، بل تغرق في البعد أكثر فأكثر، منتقلة من مستوى الحياة إلى مستوى الكون بصورة عامة. إن يكن الله كقيمة عليا و أسلوب في الحياة غير موجود، فالكون يصبح إذن خليطاً مضطرباً من القوى العمياء. إن الطبيعة تبدو لهيبولت"عملاقاً" لا يرحم، شيطاناً أخرس، أو بالأحرى آلة ميكانيكية جبارة من صنع العصر الحديث.. خيل إلي أن إنساناً قد قادني من يدي، و دلني على حشرة عملاقة مقيتة، منيراً إياها بضوء قنديل صغير، مؤكداً لي أنها بالضبط تلك القوة الجبارة، الخرساء، التي لا تقاوم، ضاحكاً من الاشمئزاز الذي تلقيت به تلك المعلومات. و لقد أصبحت الحياة مستحيلة علي منذ عرفت أنها مفعمة بمثل هذه الاشكال الغريبة، البغيضة و المرهقة معاً. و كذلك لم أعد أطيق أن أكون خاضعاً لتلك القوة على منع ولادتي الخاصة، إذن لرفضت بكل تأكيد أن أحيا الوجود في مثل هذه الشروط

السخيفة. و لكني أملك، على أية حال، القوة كي أضع حداً لوجودي، و إن كنت لا أفعل بذلك سوى إرجاع أيام قد سبق فأحصيت. تلك منحة عديمة المعنى، و ثورتي عديمة المعنى أيضاً(العبيط).

و تلك هي الحال مع كيريلوف الذي يبني تمرده و انتحاره على افتراض أن"الكوكب" بأسره ليس سوى اكذوبة، و إنه يقوم على أساس من الاكاذيب و السخف. و هكذا فإن قوانين الكوكب اكذوبة أيضاً، أو رقص شياطين ليس غير.." و في "مذكرات كاتب" نجد هذا الاعتراف أيضاً:" و لما وجدت هذه المهزلة سخيفة، مهينة و غير محتملة، فقد ادنت الطبيعة التي خلقتني بكل وقاحة كي تعذبني فقط و حكمت عليها بالتلاشي معي. و لما لم اكن أستطيع أن أنقذ حكمي كاملاً بتدمير الطبيعة معي، فعلي أن أدمر نفسي على الأقل، و بذلك اتخلص من طغيان ليس من يتحمل مسؤوليته مطلقاً". و سوف نرى أن إيفان كرامازوف يذهب إلى أبعد من هؤلاء الثائرين أيضاً.

لم كل هذا العنف، إذا جاز التعبير؟ ذلك أن الطبيعة إذا كانت فوضى من القوى العمياء، إن الإنسان هو أيضاً نتاج طارئ لهذه القوى، و دمية في ايديها تلهو به كما تشاء، عرف ذلك أم لم يعرف. و هذا يعني أن الإنسان لا يملك الحرية. إن "الحتمية المادية" بقوانينها الطبيعية التي لا تلين و قضائها الاعمى الذي لا يرحم نكران مطلق للحرية، و نكران لشخصية الإنسان بالتالي. بلى، لو أن الله موجود،" فالكل إرادته إذن". بحيث لن تكون هناك حرية أيضاً، لأن إرادة الإنسان لا تجد إذن لها مسرحاً و مجالاً. إنه يصبح دمية الله، و تصبح " الحتمية الدينية" لما تتضمنه من قدرية أمراً منطقياً. أفلا يعني هذا إننا نقع في ذات الحلقة المفرغة في كلتا الحالتين؟ بلى، و لكن هناك خلاصاً من هذا المأزق، إلا و هو فكرة الحرية كأمر موازٍ لله، بل مستقل عنه أيضاً.إنما هذا لا يعطينا حلاً للمشكلة، بل يزيدها صعوبة و تعقيداً.

و لنلاحظ هنا أن الإنسان قد اتخذ دوماً، منذ فجر التاريخ، موقفين متناقضين من الله و الكون، فإما أن يعترف بإنه عنصر بسيط

يشترك بكل تواضع في تركيب الخليقة بأسرها، و عندئذ يطمح إلى تنسيق إرادته مع إرادة الله على اعتبار هذا التناسق اسمى غاية يهدف إليها حياته، فينبغي أن يذوب في تلك الإرادة و يتحد معها اتحاداً صوفياً، و إما أن يرفض الله في حال إيمانه به، باسم إرادته الخاصة و استقلاله الذاتي، غير مبال بالثمن الذي يدفعه لقاء ذلك.

و ينعكس هذان الموقفان بصورة جلية في عبادة الإنسان ربه على المستويين الخاص و العام معاً. فالإنسان الابتدائي يسعى جهده إلى خداع الآلهة، و هي قوى الطبيعة في عرفه، كي يستثمرها في سبيل أهدافه الخاصة. و هكذا فقد مارس السحر، مستهدفاً منه فرض إرادته على الآلهة عندما يجد ضرورة لذلك، كما راقب السماء و أحداثها العجيبة، و توصل مع الزمن إلى استنباط القوانين العلمية الأولى. و عندما كان يفشل في استعباد الآلهة، إذا صح هذا التعبير، فقد كان يطأطىء الهام أمامها و يجعل من نفسه عبداً لها متوخياً رضاءها، و هو أبداً متيقظ ينتظر الفرصة المؤاتية كي يوطد إرادته الخاصة قدر المستطاع.

و يمكن أن نقول أننا نجد هذا الموقف حتى في الأديان الأكثر تقدماً، و إلى درجة ما في كل إنسان مهما يكن صوفي النزعة. و لعل هذا هو السبب في أن البعض يعتبرون العبادة الراهنة بديلاً عن السحر القديم، و لا ينكر بعض فلاسفة الكنيسة هذا الأمر، لأن الله في عرفهم لا يستطيع أن يقاوم الخدمة المقدسة أبداً، و لكن الإنسان الذي توصل إلى السيطرة على الطبيعة حتى درجة بعيدة جداً في أيامنا الراهنة ليربأ بنفسه أن يظل متذللاً إلى الله أو محتالاً عليه. إنه يريد أن يستقل بذاته بصورة نهائية مطلقة. و من هنا كان الإنسان المتفوق الذي بشر نيتشه به، أو الإنسان الله الذي يجسده دستويفسكي في شخصية كيريلوف. و هذا الإنسان الله ليقف على طرفي نقيض مع الله الإنسان، أو المسيح، إذ بينا هذا الأخير ينبغي إذابة شخصيته و إرادته في الكل الذي هو الله، نجد الآخر يجابه الله بنفسه، و يريد أن يصبح هو الكل و الألوهية المطلقة، أو يريد على الأقل أن يجعل من نفسه مساوياً لله، هذا في حال اعترافه بوجوده

طبعاً. و سوف نرى أن هذا هو موقف إيفان كرامازوف حتى درجة ما.

و واضح أن موقف دستويفسكي هو الموقف الصوفي، بل لعله يذهب بعيداً جداً في هذا الموقف، إن لم نقل أبعد من أيضاً. فعنده أن لا سبيل إلى الفرار من وجه الله، بل إن الإنسان لا يستطيع إلا أن"ينحني أمام اللامتناهي في العظمة. و يوم نحرم البشر من اللامتناهي في العظمة سيعجزون عن الحياة و يموتون في مهواة اليأس"(الأبالسة).

لماذا؟ لأن" الحياة بدون الله كابوس قاتل، بل إني أذهب اكثر من ذلك فأقول إنه يستحيل على الإنسان أن يحيا دون السجود... فإنسان لا يسجد لن يدري كيف السبيل إلى الحياة، فإن هو أنكر الله و جحده، سيجد إذن أمام صنم موهوم يصنعه من الخشب أو من الذهب..."(المراهق).

و هكذا ليس من سبيل أمام أي من بطل دستويفسكي، و كل من ابطاله صورة عنه حتى درجة ما، إلى تجنب المشكلة المعذبة و

انكارها، بل هي تتحد به اتحاداً وثيقاً كالظل لا ينفصل عن صاحبه، تسبقه حيناً كي تنير له الطريق، أو تلحق به حيناً آخر في ثوب الندامة على ما اقترف من إثم، حتى كيريلوف، و هو الوحيد الذي انكرها بصورة مطلقة، قد انتهى به عذابه الفكري إلى الانتحار كي "يقتل الله"، مبرهناً بذات موته على وجود من يسعى إلى نكرانه، و على استحالة الفرار من وجهه. و إنك تجد هؤلاء الروسيين- و من طبيعة النفس الروسية أن تعرف في كل أمر حتى أعمق جذوره، و أن نبالغ فيه حتى أبعد حدود المبالغة- يسعون إلى تفادي المشكلة في أحاديثهم و اجتماعاتهم، فيطرقون مواضيع مبتذلة تافهة قد جرى لسانها بها عشرات المرات قبل الآن، فيتحدثون عن نظام الرق في بلادهم، و عن الغرب الذي يسبقهم في ميدان الحضارة، و عن النساء، كي يخلصوا دوماً من حيث يدرون أو لا يدرون إلى قضية الروسيا أو قضية الله، و كلتاهما كل واحد في مفهوم الكاتب الكبير. هؤلاء الروسيون لا يختلفون في افكارهم عنهم في عواطفهم، فكما إنهم ينتقلون من الخير إلى الشر، و من الكراهية إلى المحبة، و من

الوداعة إلى الظلم، و من الكبرياء إلى التواضع، و باختصار من كل عاطفة إلى نقيضها بيسر و بساطة مطلقين، هكذا يقفزون دون عناء من عالم الوقائع الحسي إلى العالم المجرد، من المحدود إلى اللامتناهي، إلى مسألة الله في آخر تحليل، و الله جبار يتلاعب بافكارهم و يبعث اللهيب كاوياً في افئدتهم.

ذلك أن إله دستويفسكي هو، كما يقول ستيفان زفايج،" مبدأ كل قلق، و أصل سائر المتناقضات، فهو نعم و لا في وقت واحد. ليس الله بالشيء الذي يسبح خفيفاً فوق السحب في تأمل سعيد مغبوط كما في لوحات الفنانين القدماء أو كتابات الصوفيين، بل إله دستويفسكي تلك الشرارة التي تنبثق بين القطبين الكهربائيين للمتناقضات الأساسية؛ إنه النار التي تدفئ سائر الكائنات و تلهبها في الاشراق؛ إنه السوط الذي يستل هذه الكائنات من جسدها المطمئن الفاتر كي يدفعها نحو اللانهائية و يجتذبها نحو مختلف افراطات الكلمة و الفعل، و يرميها في شعلة شرورها المتأرثة؛ و هو لا يرتوي له غليل، مثله مثل الإنسان الذي خلقه، مثل أشخاصه

الذين أوجدهم، فلا جهد يفنيه، و لا فكرة تستنفده، و لا اخلاص يرضيه؛ إنه الكائن الذي لا يمكننا البلوغ إليه؛ إنه ينبوع كل عذاب".

و يسوع هو من حمل دستويفسكي إلى هذا الإله، لأن يسوع هو المعلم الديني الذي وجه الضربة الأشد قسوة إلى المفهوم الجامد عن الله بنقله من العالم الخارجي إلى العالم الباطن، إلى ضمير الإنسان:" **ابحثوا عن ملكوت السموات في باطنكم**". و دوستويفسكي يرى أن المسيح قد كشف لنا عن القيمة الاسمى، حتى" ليس في الكون ما هو الطف، و اعمق، و احب، و أكمل، و أكثر إنسانية من المخلص". بل إن كيريلوف نفسه، هذا الإنسان الله، يهتف أن المسيح هو الوحيد الذي اعطانا معنى الحياة، و إن"الكوكب بأسره يصبح من دونه جنوناً خالصاً". و لكن الفكر المتعطش إلى المعرفة لا يكتفي برؤية القيمة العليا و معنى الحياة في المسيح نفسه يتفق مع الحقيقة، و بكلام آخر إن كانت القيمة و الحياة اللتان اعلنهما لنا تملكان نصيباً من الحقيقة، أم أنها مجرد وهم ليس غير. من أين لنا

اليقين بذلك؟ من أين لنا أن نعرف إذا كان المسيح ضمن الحقيقة أم خارجاً عنها؟

و لنقبل أن المسيح ضمن الحقيقة، أفلسنا نصطدم هنا بعقبة أخرى، عقبة الظلم و العذاب اللذين يغمران العالم و يطغيان عليه؟ إن يكن الله موجوداً، فالإنسان يدينه العالم الذي خلقه، و ليس من سبيل آخر. و لكن عندما نجد كل هذا الشقاء في العالم، أفلا نحمل على الاستنتاج بإن الله، كعقل و حكمة مطلقين، غير موجود، أو أنه يخرج إذن عن نطاق القيم التي بشر بها يسوع. و هكذا ينقلب الإنسان على الله بدافع من الثورة الاخلاقية، و يرفضه و يرفض عالمه معه، الأمر الذي يجعل من يسوع نفسه وهماً خالصاً لا يشفع جماله له، بل لعله يدفعنا إلى مناهضته أكثر من ذي قبل، ما دمنا نطلب الحقيقة، و المسيح الذي يغوينا خارج عنها لا تتفق قيمة معها مطلقاً.

و من هنا كانت أهمية مشكلة الألم عند دستويفسكي، ما دامت هي الحجة الكبرى ضد الله في عقيدة هذا الملهم الكبير. و لقد كتب

مرة يقول في إحدى رسائله:" أني لم أجد في أوربا بأسرها قوة انكار تماثل تلك القوة التي وضعتها في شفتي إيفان في"الأخوة كرامازوف". فلنقف قليلاً عند إيفان و لنشهد به، ما دامت شخصيته تمثل القمة في انتاج دستويفسكي الفني و الفكري، و تعطينا صورة أخيرة عن مفهوم الوجود النهائي الذي صار إلى اعتناقه.

و إيفان مظهر جديد من اللغز المضني الذي يمثل راسكولينكوف في "الجريمة و العقاب"، و ستافروغين في "الأبالسة" مظهرين رئيسيين منه. إن راسكولنكوف يولي الادبار في هلع من وطأة مبدأ "ما وراء الخير و الشر"، و ستافروغين يجرب أن ينساه في تجارب تافهة يجريها على نفسه و الآخرين. أما إيفان فيتأرجح على الحافة الضيقة التي تفصل ما بين عالم"مشروعية" سائر الاشياء و بين إمكانية اشتمال الكون الذي نحيا فيه على قيمة حقيقية. إنه يريد من صميم قلبه أن يقبل هذه الإمكانية الأخيرة، و لكن اخلاصه الفكري يعترض سبيله و يرهقه دون هوادة، و إن لم يقض على

التعطش إلى الحياة المتأجج في قلبه، فهو يريد أن يعيش، حتى إن عجز عن إيجاد معنى لهذه الحياة، و ذلك بفضل حيوية عنيفة جامحة لعل اباه قد اورثه إياها. إنه يهتف بأخيه ألكسي:" إني أحن إلى الحياة، و أستمر أحيا رغماً عن المنطق. و لقد سألت نفسي عدة مرات إن كان في هذا العالم يأس يستطيع أن يتغلب على هذا العطش إلى الحياة، المهوس و ربما الشائن، المعتلج في باطني، و أنتهيت إلى أن مثل هذا اليأس غير موجود. و بالرغم من أني قد لا أؤمن بنظام هذا الكون، فإني أحب مع ذلك الاوراق الدبقة عندما تتنفتح في الربيع. إني أحب السماء الزرقاء.. و هذه ليست قضية فكر و منطق، بل هي حب المرء بباطنه، بذات معدته".

إن النهم إلى الحياة لا يقل عنده عنه عند أبيه أو عند أخويه ميتيا و أليوشا، و لكن تناقضاته الفكرية تنغص عليه متعة الحياة. إنه يتوق بكل قواه إلى أن ينشد"هللويا" للسماء، لكنه مجبر مع ذلك على التمرد، و إنه يتعشق الحياة و يهفو إليها، لكنه مضطر مع ذلك إلى رفضها. و هو يؤمن بالله، أو يدرك على الأقل عدم أهلية عقلنا

لانكاره، و هذا ما يميز عن ستافروغين مثلاً. و يتبين لنا هذا التناقض بجلاء تام في حديث إيفان مع الشيطان، هذا "الآخر" عن ذاته. إن الشيطان يعرف إيفان أكثر من معرفة هذا الأخير بذاته، فيتوجه إليه قائلاً:" إني مقتنع من مجرد هذا الاندفاع الذي تنفي به وجودي أنك تؤمن بي"، فيرد عليه إيفان مباشرة: " أبداً، فليس عندي جزء من مائة جزء من الحبة إيماناً بك". فيجيب الشيطان: "و لكن عندك جزءاً من ألف جزء من الحبة. و لعل المقادير الصغرى هي الأقوى فعلاً عندما يكون الدواء من أصل الداء.." فيصبح إيفان في نقمة:" و لا لدقيقة واحدة". لكنه يهمس بصورة غريبة بعد لحظة: " لكني كنت أحب أن أؤمن بك". فيقول الشيطان:" سوف أزرع فيك حبة ضيئلة فقط من الإيمان، و هذه الحبة ستنمو حتى تصبح شجرة من السنديان، شجرة عظيمة من السنديان تجلس عليها، و تروح تتوق إلى الانخراط في صفوف الرهبان و النساء القديسات، لأن هذا هو ما تحن إليه في الخفاء. و لسوف تأكل جراداً و تضرب على وجهك في البيداء كي تخلص نفسك".

ذلك هو سر إيفان، الموزع بين إخلاص فكره و حنينه الروحي إلى "الحقيقة"، هذا التناقض الذي انتهى به إلى تضاعف في شخصيته، الواعية و غير الواعية، إذا أنقذه من مصير سميردياكوف، هذا الخادم الذي أمن بمبدأه عن "مشروعية" كل شيء، فقد اقترب به حثيثاً من الجنون.

و لكن ماذا يأخذ إيفان على الله، و ما هي حججه ضده؟

لنلاحظ قبل كل شيء أن الله ضروري في اعتقاد إيفان، حتى ليجب خلقه إن لم يك موجوداً حقاً و فعلاً:" يا عجبا! كيف يمكن أن تنفذ فكرة ضرورة الله إلى عقل مثل هذا الوحش الضاري، الشرير، الذي هو الإنسان؟ إنها لفكرة مقدسة، حكيمة، عظيمة، و جليلة النفع بالإضافة".

و لذا فإن إيفان يؤمن بوجود الله دون نقاش، و يقبل حكمته و يعترف بغاياته التي تتجاوز إدراك العقل البشري و تتخطاه. بل إنه يؤمن، هو الجاحد بكل معنى الحياة، أن هناك بالضرورة معنى لها يختفي خلف تلك الحكمة العليا، و يقر بالتناسق النهائي الذي

سيخلص الكون إليه، و بالكلمة التي يتلهف العالم إليها، الكلمة التي كانت مع الله و التي هي الله عينه. و لكن إيفان يرفض العالم الذي خلقه الله. إنه يؤمن بأن الألم زائل لا محالة، و أن سخافة التناقضات الإنسانية المذلة متلاشية كالسراب الخادع، و أن شيئاً ما حادث في انتهاء الحياة، عندما يتحقق التناسق الأسمى، تفرح به سائر القلوب و تبتهج. و لسوف يكون ذلك الشيء عظيماً جداً، و كافياً كي يعيض عن سائر العذابات البشرية و الجرائم الإنسانية، و عن كل ما أهرق من دماء بريئة، و كل ما ذرف من دموع ساخنة، بل لربما كان ذلك الشيء العظيم كافياً ليس للصفح و المغفرة فحسب، بل لتبرير كل ما ارتكبته يد الإنسان من إثم أيضاً.

و لكن إيفان يرفض هذا العالم مع ذلك و لا يقبل به.

و الباعث الذي يحمله على ذلك هو آلام الجنس البشري التي لا تحصى و لا تنتهي. لقد جمع من الصحف و المجلات عدداً من الحوادث قد تبدو للوهلة الأولى أمراً طبيعياً لكثرة ما ألفها الناس و اعتادوا عليها، لكن المرء مدرك فظاعتها و فداحتها بشيء قليل من

التفكير، موقن إذن بهول الظلم الكامن فيها. و إنه ليصف كيف كان الأتراك يقتلون البلغارين الثائرين عليهم، المطالبين بحريتهم و خلاصهم من ربقة الدولة العثمانية، و كيف كانوا يقتلون الأطفال بصورة خاصة فيختطفونهم من احضان أمهاتهم و يلقون بهم في الهواء كي يتلقوهم على سنان حرابهم، أو يلاعبونهم حتى يثقوا بهم و يضحكوا لهم فيطعنونهم عندئذ في افواههم الضاحكة تحت أبصار الأمهات المسكينات اللائي سيأتي دورهن في الذبح سريعاً. و إنه ليذكر حوادث من تعذيب الأهل لأبنائهم على صورة مخوف حقاً، فهم يضربونهم و يقيدونهم و يلقون بهم في كهف معتم بارد ترتع فيه الحشرات، و يتركونهم هناك طوال الليل دون طعام أو شراب. حقاً كيف يمكن للمرء أن يدرك لم يجب على مخلوقة صغيرة، طفلة في السادسة أو السابعة، ضعيفة الكيان، طاهرة القلب، عاجزة عن إدراك ما يصنع بها و الدافع إليه، تضرب بقبضتها الصغيرة قلبها الموجع في الدياجير و الزمهرير و الرعب تشهد الله العزيز اللطيف على دموعها الضعيفة غير الحاقدة، لم يجب على هذه المخلوقة أن

تتحمل مثل هذا النصيب؟ و كيف يمكن أن يبرر الإنسان هذا الشر و هذه الدناءة؟ يقال إن الإنسان كان يعجز دون ذلك عن فهم الخير و الشر، و لكن ما جدوى فهم هذا الشر و ذلك الخير الشيطانيين إن كانا يكلفان هكذا غالياً؟ كلا، إن معرفة العالم لا تساوي أبداً تلك الصلاة الطفولية المرفوعة إلى الله العزيز اللطيف!

و قد تقبل أن يرتكب الأتراك تلك الفظائع المخوفة، فهم ليسوا "أوربيين"، و قد نقبل أن يضرب الأب ابنه، فهو يريد أن"يربيه". و لكن، ما تبرير مصير ذلك الطفل الذي أصاب رجل كلب سيده بحجر دون قصد منه فيما هو يلهو، فعاقبه السيد بإطلاق كلاب صيده خلفه تنهش جسده العاري المرتجف الأوصال أمام أعين والدته و سائر الخدم و العبيد الذين يراد اعطاؤهم بمثال الطفل درساً قاسياً لا ينسونه؟

و إيفان لا يعنى إلا بمثال الأطفال و حدهم، أما عبرات بقية الإنسانية فيضرب عنها صفحاً:" إن الكبار قد طعموا التفاحة و هم يستأهلون ما ينالون". و لكن لم العالم منظم على هذا الغرار؟ لعل

البشر ملومون في ذلك، فقد أعطوا الجنة فرفضوها لأنهم أرادوا الحرية بالرغم من ادراكهم أنهم سيشقون بها: إنما هذه الأسباب تقود إلى تلك النتائج، فليس منم مجرم حقيقي على الاطلاق إذن. بلى، قد يكون هذا واضحاً، لكنه لا يعزي أبداً.

و يخاطب إيفان أخاه أليوشا قائلاً: " إني أطلب العدالة، و إلا دمرت نفسي، و أنا لا أريد العدالة في مكان ما و زمان ما بعيدين في اللانهاية، بل أطلب ههنا على الأرض، لأني أعجز عن الإيمان إلا بما شاهدته عيناي فقط. إني أريد أن أرى العدالة، حتى إذا توفيت قبل تحققها فلا بعث إذن إلى الحياة من جديد إذ ليس من العدل في شيء أن يتحقق ذلك من دوني، لأني بكل تأكيد لم أشق و أتحمل جرائمي و آلامي كي أسمد تربة التناسق المقبل من أجل سواي بكل بساطة. إني أريد أن أرى بأم عيني الغزال يرقد إلى جانب الأسد، و الضحية تنهض لمعانقة القاتل. أريد أن أكون هناك عندما يفهم الجميع، فجاءة، السبب في كينونة سائر الأشياء، فأديان العالم جميعاً قائمة على هذه اللهفة، و أنا مؤمن أيضاً! لكن ما العمل بالأطفال عندئذ؟ إن

حق على البشر جميعاً أن يشقوا في سبيل التناسق الأبدي، فما علاقة الصغار بذلك؟ أنا لا اجدف! و إني لأفهم طبعاً أن قمة الكون ستتحقق عندما يمتزج كل شيء في السماء على الأرض في نشيد مديح واحد، و يهتف كل ما يحيا و سبق أن عاش بصوت مرتفع وحيد:" إنك عادل يا رب، لأن طرقك قد كشفت لأعيننا"، عندما تعانق الأم العدو الذي رمى إلى الكلاب بطفلها و تصيح بصوت عال و الدموع تطفو من عينيها:" إنك عادل يا رب". إننا نبلغ إذن تاج المعرفة و إكليلها، فيتضح كل شيء لنا و يبين. و لكني لست أستطيع أن أقبل ذلك التناسق، فأكتسب الفرصة و أنا ما برحت على الأرض كي أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، إذ عساني إذا عشت حتى اللحظة أو بعثت لرؤيتها أهتف مع الهاتفين رائياً إلى الأم تعانق جلاد طفلها:" إنك عادل يا الله". إما و أنا بعد على الأرض فإني أرفض ذلك التناسق بأسره: إنه لا يساوي عبرة واحدة من عبرات تلك الطفلة المعذبة التي تضرب صدرها بقبضتها الصغيرة، لا يساويها لأن الدموع لم تفتد، و لابد من افتدائها، و إلا استحال كل

تناسق على الاطلاق. و لكن كيف السبيل إلى افتدائها؟ أبالانتقام؟ إنما ما جدوى هذا الانتقام؟ ما نفع الجحيم للجلادين ما دام أولئك الأطفال قد سبق فتعذبوا؟ و ماذا يحل بالتناسق إذا كان الجحيم موجوداً؟ إني اتلهف إلى المغفرة و العناق. كفى شقاء! و لكن إذا كانت آلام الأطفال ضرورية لابتلاع مجموع الشقاء اللازم لمعرفة الحقيقة، فإني أقول أن الحقيقة لا تساوي مثل هذا الثمن. أنا لا أريد الأم تعانق الجلاد الذي رمى إلى الكلاب بطفلها. إنها لا تجرؤ على الصفح عنه! فلتصفح عنه من أجل نفسها إن ارادت، من أجل عذاب قلب الأم النابض في صدرها، هذا العذاب الذي لا يقاس. أما ألم طفلها المعذب فلا حق لها في مغفرته. إنها لا تجرؤ على مسامحة الجلاد حتى إن أرادها على ذلك طفلها نفسه. و إن يكن الأمر كذلك، إن يكن كلاهما لا يجرؤان على الصفح، فماذا يحل التناسق؟ هل يوجد في العالم بأسره كائن واحد يملك الحق في المغفرة و القدرة على الإقدام عليها؟ إني أرفض ذلك التناسق محبة الإنسانية، و أفضل البقاء مع الآلام التي لم تفتد، و يرفقه النقمة الحية أبداً حتى إن كنت

مخطئاً، ثم إنهم يطلبون منا ثمناً باهظاً مقابل ذلك التناسق، حتى أن شراء الدخول إليه يتجاوز طاقتنا، و لذا أسرع فأرد بطاقة الدخول إليه، و لا بد لي من ردها في أسرع وقت إذا كنت رجلاً شريفاً. أنا لا أنكر الله يا أليوشا، و لا أفعل أكثر من إرجاع بطاقته إليه. اجبني بربك أنت أيضاً.. تصور أنك تخلق معملاً للمصير الإنساني تهدف من ورائه إلى اسعاد البشر في النهاية و إعطائهم السلام و الراحة، و لكن لا بد لك في سبيل ذلك من تعذيب مخلوق صغير واحد حتى الموت- تلك الطفلة التي تضرب صدرها بقبضتها مثلاً- و أن ترفع بناءك على دموعها غير المفتداة، فهل تقبل أن تكون المهندس في مثل هذه الشروط؟ اجب، و قل الحقيقة!"

و هنا يجيب أليوشا الوديع:" كلا، إني لا أقبل". فيسترسل إيفان:" و هل تقدر على قبول هذه الفكرة: إن البشر المبني ذلك البناء من أجلهم سيقبلون بسعادتهم القائمة على دماء ضحية بريئة؟ و إذا قبلوا ذلك فهل سيضحون سعداء؟". فيجيب أليوشا مرة أخرى" كلا، أني لا اقدر".

بلى، إن دستويفسكي على حق. فنحن لن نجد في أوربا بأسرها قوة للانكار تعادل هذه القوة شدة و عنفاً، لأننا لسنا نواجه ههنا فكرة نظرية أبدعها العقل أو الخيال، و لا تقرأ صفحة من ميدان الأدب الخالص أخرجها شعور فني مرهف، بل نقف أمام فصل من التجربة الإنسانية المرة، المتجددة يومياً دون انقطاع. إن إحساسنا الأخلاقي هو الذي يرفع الصوت ههنا و يطرح هذه القضايا المعلقة أزلياً على بساط البحث. ما ذلك الألم؟ و في سبيل من؟ أيمكن تعليل هذه الفضيحة الشائنة و تبريرها بنظريات عن التناسق المقبل؟ أيمكن أن نقبل أخلاقياً بعذابات الأبرياء؟ إن قبول الله و الكون خليقته مشروطان بالإجابة على هذا السؤال، فإن كان نصيبهما الرفض لم يكن بدّ من رفض الحياة أيضاً. ففكرة إله عادل، كلي القدرة، يسوس العالم سامياً عليه، و يملي علينا من علوه أفراحنا و أتراحنا، تجاربنا و آمالنا، هذه الفكرة وحدها لا تكفي، و لا يمكن أن تكفي. إذن؟

إذن فإن الحق في رفض كل التناسق المقبل، و رفض ذلك الإله البعيد عنا، المغلق على مشاعرنا. و شعورنا الأخلاقي لا يقدر سوى على رفض ذلك، ما دام ثمنه استسلاماً أخلاقياً. و لكن ماذا إذا هبط الله نفسه إلى هوة أتراحنا و عذاباتنا و أخذ على نفسه عبء آلامنا و أضحى رفيق شقائنا و بؤسنا؟ إن الألم يمسي إذن مكان الالتقاء به، و موضع حضوره و اقترابه المباشر منا، و عندئذ يتجلى الألم و يتبرر الله فيما صنعته يداه...

" صاح أليوشا و عيناه تبرقان:" أخي، لقد سألت إن كان في العالم كائن يحق له أن يصفح و يستطيع أن يصفح! و لكن هذا الكائن موجود، و هو يستطيع أن يصفح عن الجميع و من أجل كل شيء، لأنه قد أهرق دمه عن الجميع و من أجل كل شيء. لقد نسيته يا إيفان، و مع ذلك فالبناء عليه سيرتفع، و البشر إليه سيهتفون: أنت على حق يا سيد، لأن طرقك قد كشفت لأعيننا".

فهاوية العذاب إذن لن يملأها إلا محبة الله و تضحيته اللامتناهيتان، تلك المحبة التي رضيت بتضحية الموت القصوى، و الجواب على إيفان هو إذن صليب الله الإنسان.

إنما إيفان بالمرصاد، ينتظر ذلك الجواب من أخيه، بل يعجب طوال الوقت كيف لم يلجأ ألكسي إلى ذلك البريء عن كل خطيئة، و لم يشرع سلاح دمه المهرق فداء عن البشر. إنه يعرف هذه الصورة الرائعة، صورة الله الإنسان المصلوب، يعرفها و يحبها، لكن لا يؤمن بها. و إنه ليطرح آخر سهم في جعبته بصورة اسطورة" حاكم التفتيش الكبير".

و في هذه الأسطورة لا تعود القضايا التي يعتبرها إيفان شخصية محصنة، بل تتسع حتى لتشمل الإنسانية كلها، و الطريقين اللتين تتنازعانها منذ الأزل، طريق الخير و طريق الشر. إن يسوع قد عاد إلى الأرض بصورة إنسان بسيط دون إثارة أية ضوضاء، و ليس كما وعد أن يعود في نهاية العالم، محاطاً بجند الملائكة، كي يدين البشر و يحقق ملكوت السموات. و مع ذلك فقد عرفه الجميع مباشرة،

فاحتفوا به يتقبلون منه البركة و الشفاء. و عند باب إحدى الكنائس التقى بجنازة صبية فرد إليها الحياة، فبصر به حاكم التفتيش الكبير الذي صادف مرور موكبة قرب الكنيسة في تلك الأثناء و أمر جنده باعتقاله و زجه في غياهب السجن، استعداداً لحرقه في الغداة مع الكفرة و الجاحدين.

و زاره في السجن ليلاً. و في العتمة و قف يسوع بعينيه الوادعتين، يواجه نقيضه. كلاهما يحبان البشر و يريدان لهما الخلاص، لكن يسوع قد ارتكب الخطيئة الفادحة التي لا تغتفر، فرفع الناس إلى مستوى عالٍ جداً، و توقع المستحيل، ألا و هو القوة على تحمل عبء حريته التي ألقاها على كاهلهم: " لقد ضاعفت من سعة حرية البشر بدلاً من تضييقها، فهل نسيت أن الإنسان يؤثر السلام، حتى سلام الموت، على حرية الاختبار بين الخير و الشر؟ .. لقد أخذت عن الإنسان فكرة رفيعة جداً، لكنه عبد، و إن يكن قد خلق متمرداً و ثائراً!...

القلق و الشك، و البؤس، هذا هو نصيب البشر الذيم حررتهم آلامك.." فيسوع يحب البشر و يحترمهم، لكن هذا الاحترام ألحق الفشل بإنجيله فلم يستطع أن يجعل الإنسانية حرة سعيدة. و إذا أنكره الناس و لعنوه، فهو وحده المسؤول عن ذلك المصير:" لقد أردت أن يكون حبهم لك حراً، فمهدت بذلك السبيل إلى دمارك".

أما حاكم التفتيش فيحب البشر هو الآخر، و لكنه يعرفهم كل المعرفة بحيث لا يتوقع منهم شيئاً على الإطلاق. إنه ينظر إليهم على حقيقتهم الراهنة و ليس كما يجب أن يكونوا- ههنا تكمن خطئية يسوع في رأيه-، و لذا فهو يعاملهم كما يستأهلون، فلا يستطيع سوى احتقارهم. و لكن هذا لا يمنعه عن الرثاء لهم، فيريد أن يخفف من عبء نصيبهم المرهق على الأرض، و ذلك بتحررهم من حريتهم الداخلية، و نزع كل مسؤولية أخلاقية من نفوسهم، و منحهم بذلك السعادة،" سعادة الولدان"، و سبيله إلى ذلك تصحيح عمل يسوع.

و هو نفسه لا يؤمن بالله و لا يؤمن بيسوع، إنه يعتقد بعبث وجود الناس، هذا الوجود الذي لا يعدو كونه لهواً سخيفاً من الأوهام. و إنه ليحس الصقيع في هذا الفراغ الباطني، لكنه يملك القوة الكافية على مواجهته، مدركاً عجز بقية الإنسانية عما قدر هو على تحقيقه، مقتنعاً بضرورة احتفاظه بالسر لنفسه، و فرض اكذوبة ملائمة على الجنس البشري بحيث يحفظه من بؤسه الخاص.

إن يسوع، على العكس من الناموس القديم الذي كان يملي بالقوة ما هو خير و ما هو شر، قد نقل سائر القيم من العالم الخارجي إلى عالم الباطن، إلى قلب كل فرد سيقرر وجدانه من تلقاء ذاته، و بمطلق الحرية، إن كان سيتبعه أم لا، دون أي إكراه أو وعيد، و دون أية وعود أيضاً، بل حتى دون أن يقدم أية ضمانة بأن القيم التي يبشر بها هي في قلب الحقيقة. كيف يستطيع الإنسان إذن، و هو المجبول على الضعف و التمرد، أن يقبل به دون شكوك و تردد، و دون ضغط في الدرجة الأولى؟ كيف يمكن ألا يرمي تلك الحرية عنه منذ اللحظة التي يتوصل فيها إلى اكتسابها، ما دامت تسمو على

قواه، و تئيد عليه أكثر مما ترهقه العبودية؟ من أين له أن يرتفع إلى الله عبر المحبة و الحرية اللتين حملهما يسوع إليه؟:" ألم تكن تدري إنه سيرفض صورتك و حقيقتك على الأقل، إذا ما اثقلت عليه بنير الاختبار الحر المرهق؟ لقد كنت تسبب لهم اضطراباً و عذاباً فائقين، إذ تلقي على كاهلهم كل هذه الاهتمامات و القضايا التي لا جواب لها.."

لو أن احترامه للإنسان كان أضأل مما هو عليه، لطلب من إذن أقل مما فعل، فيكون ذلك منه"أقرب إلى المحبة، لأن عبئه لن يكون إلا أقل ثقلاً". أما طريقة البطولية كما هي، فالنخبة القليلة وحدها تستطيع أن تسلكها، و ما أندر اولئك الذين يملكون ما يكفي من القوة كي يتحملوا و طأة حريته الباطنة. و أين العدالة في مثل هذه الحال، إذا كان المسيح لم يأت إلا من أجل القلة المختارة، تاركاً الباقين جميعاً لمصيرهم البائس؟ إلام سيصير اولئك الملايين إذن؟ " أيمكن أنك جئت إلى المختارين و من أجلهم فقط؟ لكن إذا كان الأمر كذلك فهو سرّ لا نستطيع سبيلاً إلى فهمه. و إذا كان الأمر

كذلك، فإن لنا الحق نحن الآخرين في التبشير بسر، و في تلقينهم أن الاهمية لا تقوم في محاكمة قلوبهم الحرة، لا تقوم في المحبة، بل في سر يجب أن يتبعوه و هو عميان، حتى ضد وجدانهم ذاته!!

إن حاكم التفتيش يرفض، مثل إيفان، أن يأخذ مكانه بين النخبة، إذا كانت"ملايين الكائنات قد خلقت في الوقت ذاته كمجرد هزأة ليس غير". إنه يرفض المسيح لا بدافع من الأسباب الشخصية، بل بدافع من الرثاء للجنس البشري. إن تعطشه للعدالة يحثه إلى ربط مصيره بمصير تلك الملايين، إلى التضحية بكل شيء، حتى بالحقيقة، في سبيل سلامتهم و سعادتهم، بالأحرى من أن ينشد المديح أمام وجه السماء مع القلة المختارة.

و هذا الإشفاق على الضعفاء يحمل حاكم التفتيش على استبدال السيد المسيح بأكذوبة خالصة. إنه يعرف عدم أهليتهم للاختيار الحر، فيضفي على نفسه سلطة روح"معصوم عن الخطأ" يحرس من دون الآخرين سر الخير و الشر بحيث يحق له أن يغلّ وجدان البشر في سبيل مصلحتهم و حدها. و إنه واثق من نفسه كل الثقة حتى

ليضحك من أولئك الذين يتمردون عليه باسم العقل و العلم. إن البشر يحتاجون إلى أن يخلصوا من أنفسهم في المحل الأول، و العقل و العلم لن يستطيعا تحقيق هذا الخلاص لهم. هو الوحيد القادر على إنجاز هذا الهدف، و ذلك بتصحيح عمل يسوع الذي رفض أن يحيل الحجارة خبزاً- و لقد كانت هذه الأعجوبة وحدها قادرة على جعل البشر أتباعاً له لا يحيدون- كما رفض التجربتين الأخريتين اللتين كانتا توفران له السر و السلطة معاً. لكن حاكم التفتيش سيعمل العكس تماماً، فيأخذ الحرية من البشر كي يعطيهم خبزاً. " لقد صححنا عملك و بنيناه على أسس ثلاثة من **المعجزة، و السر، و السلطان**، فإذا البشر يغتبطون لأنهم يقادون كالخراف من جديد، و لأن المنحة المخوف التي وهبوها، و التي جلبت عليهم كل العذاب، قد رفعت عن كاهلهم أخيراً. أفلم نكن على حق بتلقينهم ذلك؟.. أفلسنا نحب الجنس البشري، معترفين بضعفه بكل حكمة و وداعة، مخففين من حمله بكل عطف و حنان، ميسرين لطبيعته الضعيفة حتى الخطيئة التي بررناها؟".

و يرسم حاكم التفتيش أمام يسوع لوحة عن عالم المستقبل كما سينظمه. لسوف يقاوم البشر فترة أخرىٰ، لكن الحرية من جهة، و العقل و العلم من جهة أخرىٰ، ستخلق معضلات عديدة لن تجد حلولاً لها، و ستخلق في الوقت ذاته فوضى داخلية و خارجية معاً بحيث يدمر الأقوياء أنفسهم، بينما يقضي الضعفاء بعضهم علىٰ بعض، كي يزحفوا بعدئذ علىٰ قدمي حاكم التفتيش متوسلين:" بلىٰ، لقد كنت علىٰ حق، فأنت الوحيد الذي تملك سرّه، و قد رجعنا إليك، فأنقذنا من أنفسنا". و عندئذ يصبح حاكم التفتيش سيد العالم، فينظمه علىٰ أساس الخضوع و الاستسلام، و يجبر الجنس البشري علىٰ السعادة عندما ينتزع منه حريته الباطنة. و من المؤكد أن هذا العالم الذي يريد حاكم التفتيش أن ينظمه باسم يسوع نفسه، لكن ليس حسب المبادىء التي نادىٰ بها و القيم التي بشر بها، لا يختلف كثيراً عن رؤيا فيرسيلوف في "المراهق": " إني أتصور يا عزيزي أن النضال قد انتهىٰ أخيراً، فبعد العديد من اللعنات و الكثير من الضخب و الصفير و الطنين حلّ السلام و بقي البشر

وحيدين مثلما رغبوا أن يكونوا. لقد غادرتهم الفكرة العظمى العتيقة، و طفق ذلك الينبوع الجبار من القدرة الذي طالما غذاهم يبتعد أشبه ما يكون بالشمس المهيبة في لوحة كلود لوران: و ذلك كان قيلولة يوم الإنسانية الأخير. و أدرك البشر بغتة أنهم قد بقوا وحيدين تماماً، مثل يتامى مسكين. و لكني لست أتصورهم أبداً، يا بني العزيز، بلهاء و عاقين، بل هم لابد متلاصقون و قد حرموا من شمسهم الروحي، متعانقون في محبة و قد أدركوا أن لم يعد لهم كائن آخر يحبونه. لقد توارت فكرة الخلود العظمى و لابد من استبدالها، فإذا الحب الذي كان البشر يضمرونه لمن كان هو نفسه الخلود يتمركز الآن على الطبيعة، و العالم، و الناس، و كل عرق من العشب صغير. و لسوف يتملكهم حب جديد و ملتهب نحو الأرض و الحياة بمقدار ما يحسون أكثر فأكثر مبلغ ما عليه وجودهم الخاص من وقتية و زوال. و سوف يشاهدون في الطبيعة حوادث و أسراراً لم تخطر لهم من قبل على بال، إذ سيرون الهنا بأعين أخرى، أعين العاشق إذ ينظر إلى معشوقته.

و سوف يسرعون منذ يقظتهم فيتعانقون و يتحابون في شعورهم المشترك بأن أيام حياتهم معدودة، و أن الحب المتبادل هو الشيء الوحيد الذي تبقىٰ لهم. و سوف يعملون من أجل بعضهم البعض، و كل منهم مستعد دوماً لتوزيع كل ثروته، واجداً في هذا العمل سعادته و مكافأته؛ و كل طفل لن يرىٰ في سائر الكائنات الإنسانية الأخرىٰ إلا آباء و أمهات؛ و كل سوف يفكر و هو يتأمل الشمس المتطفلة: ماذا يهم إن كان الغد يومي الأخير، فإذا مت فالآخرون باقون، و من بعدهم ابناؤهم أيضاً؛ و سوف تحل هذه الفكرة عن إنسانية مرتعشة محبة تخترق العصور مكان فكرة الحياة الأبدية عندهم. أواه! بلىٰ سوف يعجلون في المحبة كي يخنقوا الحزن العظيم الذي يملاء قلوبهم، و يكونون فخورين و مقدامين فيما يخصهم، لكن سرعان ما يصيروا خجولين فيما يخص الآخرين، و كل منهم سيرتجف من أجل وجود قريبة و سعادته. لسوف يكونون ودعاء لطفاء مثل الأطفال، فإذا ما التقوا تبادلوا نظرة ثقيلة، مشبعة بالمعاني العميقة، فيها الحزن و المحبة مكتوبان".

و لا يختلف حلم حاكم التفتيش الكبير عن رؤيا فيرسيلوف كثيراً:" سوف يكون هناك ملايين من الولدان السعداء و يضع مئات الألوف من المعذبين الذين أخذوا على أنفسهم لعنة معرفة الخير و الشر. و سوف يموتون بكل سلام، و سوف يلفظون أنفاسهم الأخيرة مرددين اسمك بكل سلام، و فيما وراء الرمس لن يجدوا سوى الموت. لكننا سنحتفظ بالسر، و نغريهم بمكافأة السماء و الخلود في سبيل سعادتهم. لأنه إذا كان شيء في العالم الآخر، فهو لن يكون لأمثاله بكل تأكيد..".

كلاهما عالمان يعيشان على سراب، خاليان من كل معنى، يقربان من العدم حتى درجة بعيدة. و إن رؤيا دستويفسكي نفسه لتختلف عن هذين العالمين كلا الاختلاف: " إن الفكرة القائلة أن حياة الجنس البشري لا تعدو كونها ومضة يرجع كل شيء بعدها إلى العدم حتى حب المرء للجنس البشري. إن الشعور بإن المرء لا يستطيع شيئاً في سبيل التخفيف من عذاب الإنسانية قد يقلب الحب الذي تضمره للجنس البشري إلى حقد و كراهية له. بل إني اؤكد أن

حب الجنس البشري أمر قليل الادراك بصورة عامة يتجاوز فهم النفس الإنسانية، لأن هذا الحب لا يمكن أن يبرّر إلا بالشعور المشتق من الإيمان بخلود الروح، و فقدان كل معنىٰ أسمىٰ للحياة سيؤدي حتماً إلىٰ الانتحار"(مذكرات كاتب). ذلك أن " لا الفرد و لا الأمة قادران علىٰ الوجود بدون فكرة عليا، و نحن لا نملك ههنا علىٰ الأرض سوىٰ فكرة عليا واحدة، ألا و هي فكرة **خلود النفس**"(مذكرات كاتب). فدستويفسكي يقلب القيم إذن. و خلود النفس لم يعد في عرفه عزاء و تعويضاً عن عذابات هذه الحياة الدنيا، بل إن الله و الخلود شرطان أسساسيان لأمتلاء وجودنا الأرضي و كماله، لأن إنساناً واعياً **لا يستطيع، و يجب ألا يستطيع**، قبول وجوده الخاص من دونهما. و هذه العقيدة التي بشر بها في مذكراته و رسائله قد يعىٰ دوماً إلىٰ وضعها و التعبير عنها في قالب فني، و بلغ الأوج في سعيه في"الاخوة كرامازوف".

و لنعد مرة أخرىٰ إلىٰ حاكم التفتيش الكبير. إن محبة الإنسان الكامل، الإنسان الجديد كما بشر يسوع به أمر يسير جداً، أما

الصعوبة كل الصعوبة فتكمن في محبة الإنسان كما هو، في محبة اولئك الذين لا يستطيع المرء أن يحترمهم، بل لا يستطيع إلا أن يحتقرهم .. و إن في الرثاء لإنسانية بائسة، مقيتة، و باعثة على النفور، متدهورة الأخلاق، ضعيفة الإرادة، إن الرثاء لمثل هذه الإنسانية بطولة كبرى، لعلها تختلف عن السمو الكامن في محبة يسوع، لكنها تظل بطولة على طريقتها الخاصة. فلا عجب إذن إذا خاطب حاكم التفتيش يسوع و تحداه كندٍ، كمساوٍ و كفؤ:" لقد سبقت النبوءة بأنك ستعود من جديد لابساً الظفر، ستعود محاطاً بمختاريك، الفخورين و الأقوياء، و سوف يقولون إنهم قد أنقذوا أنفسهم فقط، أما نحن فقد أنقذنا الجميع. و عندئذ سوف أقف و أدلك على آلاف ملايين الولدان السعداء الذين يعرفوا الخطيئة، و نحن الذين أخذنا على كاهلنا خطاياهم في سبيل سعادتهم ستنهض أمامك و تقول" أدنا إن كنت تستطيع و تجرؤ. ألا فأعلم إني لست أخافك. ألا فأعلم إني كنت، أنا أيضاً، في الصحراء، و إني قد طعمت أنا أيضاً الجذور و الجراد، و إني قد قدّرت أنا أيضاً الحرية التي منحتها

البشر و باركتهم بها، و أني قد تقت أنا أيضاً إلى الوقوف بين المختارين، بين الأقوياء المفعمين قدرة، هادفاً إلى"إكمال العدد". لكني أستيقظت و رفضت أن أخدم الجنون، فرجعت على أعقابي و انضممت إلى صفوف اولئك الذين صحبوا عملك.

لقد غادرت المتكبر و رجعت إلى المتواضع، في سبيل سعادة المتواضع".

و لما كانت عودة يسوع تشكل خطراً على هذا البرنامج المطبق في سبيل سعادة العدد الأعظم، فإن حاكم التفتيش الكبير عازم على إحراقه في الغداة دون خوف أو وجل كي ينقذ البشرية إلى الأبد من تأثيره الضار. إنه ضد المسيح يقتل المسيح باسم المسيح:" إن ما أقوله لك حادث بكل تأكيد، و حكمنا سيبنى من دون ريب. و إني أعود فأقول إنك سترى غداً ذلك القطيع المطيع يسرع، بإشارة مني، فيكدس الجمرات اللاهبة على الكوم الذي سأحرقك عليه لأنك جئت تصدّنا. لأنه إن كان كائن يستأهل نيراننا فهو أنت. في الغداة سوف أحرقك. هذا كل شيء".

ما سر حاكم التفتيش؟ ما سر إيفان؟ إن إيفان يؤمن بالله، و يؤمن بأن الحياة يجب أن تملك معنى، و بالتالي بأن هناك قيمة عليا بالضرورة، و ذاتية باطنة يصبح الاختيار الحر بين الخير و الشر مستحيلاً بدونها. و لعل هذا يؤدي إلى تبرير ميتافيزيائي لوجود الشر، إذ لو لم يكن في العالم سوى الخير وحده ليطلب الحرية إذن، ما دام البشر جميعاً سيكونون أخياراً بالضرورة. و لكن بينما يقبل فكرنا الشر في سبيل الإنسان الداخلية، فإن شعورنا الأخلاقي يرفض وجود هذا الشر و يثور عليه. و هذا التناقض بين المستوى الروحي و المستوى الأخلاقي المحض هو مجرد تمرد إيفان و ينبوع عذابه النفساني. إنه يطلب حرية المسيح الداخلية، لكنه يثور على الشر الذي تستحيل تلك الحرية بدونه. إنه يقبل وجود الله، لكن يرفض العالم المخلوق منه. إنه "يرد بطاقته".

و لكن حاكم التفتيش لا يؤمن بالله، و كذلك لا يؤمن بالمسيح"، و إن كان يعترف بجمال صورته الأخلاقية. إنه بالأحرى يؤمن بالآخر، بالشيطان، أو إنه إنحاز إلى جانبه على الأقل. و لذا فهو

يجيب على حجة أليوشا الذي يجد في المسيح ذلك الكائن القادر على الصفح بالارتياب في شخصه، أو في عمله على الأقل، و تلك قمة الانكار. و هذا يعني أن حاكم التفتيش قد ذهب أبعد من فيرسيلوف المنكر للوحي الذي اختتم، هو، لوحته عن العالم يوم يتحرر من فكرة الله بالرؤيا التالية:

" و من الغريب إني اختتمت لوحتي دوماً بظهور للمسيح أشبه بوصف هايني لظهور المسيح على بحر البلطيق. فأنا لم أستطع استغناء عنه، كما لم أستطع أن أتصور قط إنه يبدو أخيراً بين هؤلاء الناس المتعبين المهجورين. إنه يأتي نحوهم، و يمد إليهم ذراعيه قائلاً: كيف أن تنسوني؟ و يحدث عندئذ كأن الغشاوة سقطت عن أعينهم، فيتردد نشيد القيامة الأخيرة منصراً ظافراً"...

لكن الإلحاد قد بلغ الأوج عند حاكم التفتيش. إن فيرسيلوف يغذي دوماً بعض الرجاء في صميم قلبه، أما الآخر فقد أضاع كل رجاء. إنما لعله أقرب بذلك إلى الإيمان، لأن "الإلحاد الكامل يقف في أعلى السلم، على الدرجة قبل الإخيرة المؤدية إلى الإيمان الكامل،

و المشكلة بأسرها تنحصر فيما إذا كان سيجتاز هذه الدرجة أم لا"(الأبالسة). و لذلك يقول أليوشا في نفسه متأملاً في حال أخيه إيفان:" سوف ينتصر الله. فإما أن ينهض إيفان في نور الحقيقة، و إما أن يتلاشى في الحقد، منتقماً لنفسه و من كل إنسان لكونه قد خدم القضية التي يؤمن بها". و لقد كان أليوشا على حق، إن إيفان لم ينهض في نور الحقيقة، بل تلاشى في الحقد، و انتهى إلى حال تقترب كثيراً من الجنون.

و لقد وقف هذا الإلحاد الكامل في وجه يسوع، يرميه بحجم حججه اللاهبة، و وقف بينهما دستويفسكي، مضطرباً، يراقب الميزان حيث ألقي مصير الإنسان. إن إحدى الكفتين مثقلة، مثقلة جداً حتى ليتساءل راجف القلب إن كانت لن ترجع بمحتوياتها. ماذا يستطيع يسوع أن يرمي في الكفة الثانية؟ و يقول إيفان:" كنت أريد أن أختم قصيدتي هكذا: و صمت حاكم التفتيش و انتظر بضع لحظات جواب السجين، لكن سكوت هذا الأخير قد أثقل عليه. كان يرى أن السجين يصغي إليه طوال الوقت بانتباه، مثبتاً فيه

نظرته الوديعة، راغباً فيما يبدو عن الجواب تماماً. كان الحاكم يود أن يسمع إليه ينطق بكلمة واحدة على الأقل، و إن تكن هذه الكلمة فائقة القسوة و المرارة. لكن السير اقترب من الرجل العجوز، و قبله على شفتيه الجافتين: كان ذلك جوابه الأوحد. و انتفض الشيخ والتوى فوه، فاتجه إلى الباب و فتحه قائلاً: اذهب، و لا تعد قط، لا تعد أبداً... أبداً. و تركه يخرج إلى طرقات المدينة المظلمة، فسلك الأخير سبيله مبتعداً".

إن المسيح قد انتصر. لم ينطق بكلمة واحدة طوال الوقت، و لكنه قد نال الظفر في النهاية. أليس ذلك غريباً؟ و ما معنى هذه القبلة التي ارسلت الارتعاش في قلب الشيخ المهووس بفكرته؟ أهي اعتراف لحاكم التفتيش بالصواب؟ أم هي دلالة شكر على دفاعه الذي لم يك في الحقيقة إلا دفاعاً عن المسيح نفسه؟ أم هي أخيراً قبلة الحب الذي يقابل المؤمن بها الاساءة و يظفر بالنصر عن طريق الحب عينه؟ لعل في رد الفعل الذي انتاب أليوشا أيضاحاً لذلك، فهو قد أصغى طوال الوقت صامتاً، و أخيراً صاح، و قد احمرت

وجنتاه:" لكن ... هذا سخف! أخي. إن قصيدتك مديح تمجيد ليسوع، و ليس عتاباً كما أردت أن تكون!". و في الحقيقة إن رد الفعل عند كل قارئ هو مماثل له عند أليوشا. فهل تعمد الكاتب نفسه هذه النتيجة؟ إن الجواب على الاتهامات الموجهة إلى يسوع هي شخصه بالذات: مثله يوم وقف يجابه اتهامات اليهود بالصمت أيضاً. إن مجرد وجوده يكفي، في رأي دستويفسكي، كي يرفت كل اتهام." إن الحقيقة عن الحرية لا يمكن التعبير عنها، أما الحقيقة عن الإكراه فليس أسهل من التعبير عنها"، كما يقول بردياييف في هذا الموضوع. و الحقيقة عن الحرية قد انبثقت أخيراً من التناقضات في آراء حاكم التفتيش الكبير. فحاكم التفتيش يناقش، و يأتي بالحجج الكثيرة، و يلوذ بمنطق مسلح بدرعٍ متين. لكن صمت المسيح يترك أثراً أعظم بما لا يقاس. ذلك أن **"الشر يبدو أقوى في هذا العالم"**، مهما حاكمنا عقلنا و اضطربنا على مستوى هذه البسيطة. و هو يلوح لنا الأمر الواقعي الأوحد، إن هاجمناه أم هللنا له. إنما المشكلة هي الانتقال إلى مستوى آخر، إلى عالم نجد فيه بعداً رابعاً، ألا و هو

مملكة الروح. عندئذ فقط تنتصر الحرية، و يظفر الله، و ينحاز الإنسان إليه".

ذلك هو بالضبط ما حدث لراسكولنيكوف في المنفى، حين تناول من تحت و سادته ذلك الكتاب الذي لم يفارق الفنان الذي أبدعه طوال منفاه، و طفق يقرأ فيه، فإذا "الحياة تحل مكان الجدل، و شيء ما يختلف كل الاختلاف عما عهده في أعماق وجدانه". عندئذ تحققت المعجزة.

إنما أليوشا هو الذي يعبر عن هذه الحال بصورة لا تجارى. لقد مات الراهب الذي يحبه، و أخذت الرائحة تتصاعد من جثمانه، و الريبة تدب معها إلى قلب تلميذه الوديع. و لقد نام أليوشا على دكته، إلى جانب الجثمان الذي احتف الرهبان به كما هي العادة، و أحدهم يقرأ الانجيل بصوت مرتفع. و في رقاده الخفيف سمع الأب بايسيوس يقرأ قصة قانا الجليل، فإذا الراهب زوسيم يظهر له في حلمه، حياً من جديد، و يأتي إليه يشرح الإنجيل له. و استيقظ أليوشا، و تأمل الراهب العجوز المتمدد في نعشه بارداً متيبس

الأعضاء،" و استدار بعنف على حين غرة و غادر الحجرة، و هبط السلم دون أن يتوقف. كانت نفسه الفياضة عطشى إلى الحرية، إلى المكان و الأفق العريض. و كانت فيه السماء تمتد فوق رأسه إلى ما لا نهاية، تبرق فيها الكواكب الهادئة، و المجرة تلوح، غامضة الحدود بعد، منذ السمت حتى الأفق. و كان الليل الهادئ يلف الأرض بردائه، و الأبراج البيضاء و القبب الذهبية تنفصل عن قاع السماء اللازوردي، و زهور الخريف الثرية قد نامت حول البيت حتى الصباح. كان سكون الأرض يلوح و كأنه يمتزج بسكون السموات، و السر الأرضي قد اتحد بسر الكواكب. و طفق أليوشا يتطلع، جامداً في مكانه، و إذا هو يخر ساجداً على حين بغتة، و كأنه قد حصد حصداً بصورة مباغتة.

" و لم يدر لماذا عانق الأرض، و لم يفهم ما الذي يحمله بصورة لا تقاوم على تقبيلها في التو و اللحظة؛ و لكنه كان يقبلها متأوهاً، و هو يغمرها بدموعه، و يعد نفسه في حمية أن يحبها، أن يحبها دوماً. و ترددت في نفسه هذه الكلمات:" أسق الأرض بعبرات الفرح و

أحبّ هذه العبرات!". علام تبكي؟ اواه! لقد كان يبكي في اشراقة حتى على تلك النجوم التي تبرق في اللانهاية، و لم يكن مستحياً من إشراقه. كان يقال أن خيوط هذه العوالم التي لا تحصى تتلاقى في نفسه، و أن هذه النفس ترتعش بكلتيها، في احتكاك مع العوالم الأخرى. كان يريد أن يصفح عن الجميع و من أجل كل شيء، و أن يسأل المغفرة ليس من أجل ذاته، لكن من أجل الآخرين و من أجل كل شيء. و ترددت هذه الكلمات أيضاً في ذاكرته:" سوف يطلب الآخرون ذلك من أجلي". و كان يحس أكثر فأكثر، بصورة بينة تكاد أن تكون محسوسة، إن شعوراً ثابتاً لا يتزعزع ينفذ إلى نفسه، و أن فكرة تستولي على فكره إلى الأبد. كان قد خرّ مراهقاً ضعيفاً، لكنه نهض مناضلاً شديد المراس حتى آخر أيام حياته... لقد أدرك ذلك جيداً في تلك اللحظة من أزمته. و لم ينس أليوشا تلك البرهة بعد ذلك أبداً. و كان يقول مؤمناً كل الإيمان بصحة كلماته:" إن روحاً زارت نفسي في تلك الساعة!".

لكأن سائر الوجوه التي خقلها الكاتب الكبير تحدق بهذا الراهب المبتدئ، الوديع العذب، الذي هو من آل كارامازوف أيضاً؛ و لكأن التيار الصوفي العظيم الذي يخترق انتاج دستويفسكي يجد هنا بغيته و غايته! إن العائلة كارامازوف في فكر هذا الملهم سوى البشر بتناقضاتهم العديدة، بالخير و الشر اللذين يتنازعانهم، بالعنصر الإلهي و العنصر الشيطاني اللذين يمتزجان في نفوسهم. و لكن المعجزة ستقع بكل تأكيد، المعجزة الروحية، معجزة الولادة الجديدة، ولادة آدم الجديد. و إن عنوان الفصل المشتمل على هذا الاشراق الذي يغمر أليوشا ليدل على هدف الكاتب دون موارية،" و ما الإنسان إلا خاطئ سوف يتوب. و عندما يتبدل الماء خمراً، فذلك يعني تأليه الكائن، و انتقاله من الحياة الطبيعية إلى حياة جوهرها الروح. و كذلك الأمر في "الجريمة و العقاب" أيضاً، حيث ترمز قيامة لعازر من بين الموتى إلى هذه الولادة الجديدة، و سونيا قد بعثت الإيمان في نفس راسكولنيكوف، زرعت البذرة

الأولى منه بالأحرى، برواية تلك القيامة له:" إن روحاً قد زارت نفسي في تلك الساعة".

و عندئذ يقبل أليوشا الأرض و يسقيها بعبراته. عندئذ يتحد السر الأرضي بسر النجوم. عندئذ يلف الله الكون كالليل الساكن الذي يلف الأرض و يغمرها. عندئذ" يخفق الكون بأسره" في قلب أليوشا، فيسمو إلى الله بالاشراق، و يتجلى الكون كذلك معه.

سوى أن هذا الاشراق ليس غاية، بل بداية بالأحرى، فجر حياة جديدة طافحة فياضة. إنه يختلف كل الاختلاف عن الحالات التي يتعرض لها ميشكين(العبيط)، و التي تتجدد بصورة دورية كي تتركه بعدئذ لرخاوته و هموده. إنه يشكل في وجد أليوشا منعطفاً، و يحمل له قوة ستدفع به قدماً باستمرار. الام كان سيصير؟ لقد كان دستويفسكي ينوي أن يكتب قصة"حياة خاطىء كبير" يروي فيها مصير أليوشا اللاحق. لكن القدر لم يمهله، فاختطفه في ذات السنة التي أنهى"الاخوة كارامازوف" فيها. إنما هذا لا يعني مطلقاً أن عمله قد ظل ناقصاً. بل إن الكلمة الأخيرة التي تتوج انتاجه في

"الاخوه كرامازوف" هي كمال جديد للوجود يبلغ الإنسان إليه بخلق نفسه خليقة جديدة. و هنا لا تعود الحياة شيئاً طارئاً عديم المعنىٰ، كما لا يعود الإنسان نتاجاً طارئاً لقوىٰ طارئة عمياء، بل يصبح نضاله الداخلي فصلاً من مأساة العالم الكبرىٰ، و يصبح لصعوده و انتصاراته و هزائمه نتائج تتجاوز بها لا يقاس مصيره الإنساني الذاتي. إن كل إنسان يصبح ههنا مسؤولاً عن الحياة بكاملها، عن الجميع و عن كل شيء، و بذلك يصبح "مساعداً الله" في عمل الحقيقة. عندئذ فقط تكتمل حياة الإنسان علىٰ الأرض.

إنما يبقىٰ سؤال معلق: كم إنسان يستطيع أن يحقق هذه الرسالة الكبرىٰ؟ أليسوا هم القلة المختارة دوماً؟ إن دستويفسكي لا يجيب علىٰ السؤال. لكن حاكم التفتيش ما يزال جاحداً بالله و بيسوع، و ما يزال يعمل علىٰ تحقيق رسالته الخاصة في تصحيح عمل يسوع. و إن كلاً منهما يسلك طريقه نحو البشر، و لن يبرحا يتصارعان. أما التنبؤ بالمصير الأخير فأمر صعب، و هو كذلك مثقل بالنتائج حتىٰ لينكس المرء عن البت فيه.

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة

دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر بسورية- ١٩٥٣

استناداً إلى الترجمتين الفرنسية و الانكليزية ثم روجع النص الأخير على الأصل الروسي

مقدمة لرواية" الأخوة كارامازوف"، فيدور دوستويفسكي

بمثابة خاتمة

أولاً: المرأة في روايات دوستويفسكي

" إن المرأة امرأة ولو كانت راهبة"

" إن كل امرأة تدّخر لزوجها بعض الخطايا القديمة لتستعملها في الوقت المناسب".

دوستويفسكي

لقد تناسى بل أهمل الباحثون و النقاد "قضية المرأة عند دوستويفسكي" على الرغم من شيوعها في رواياته و من ثم لم نجد أية دراسة حول هذا الموضوع اللهم مقتطفات متناثرة هنا و هناك. و هدفنا في هذا الملحق أن نورد بعض ما جاء على ألسنة أبطال كاتبنا و ما قالوا عن المرأة، و لنرى كيف كان ينظر إليها على الرغم من إيمانه الشديد بقضية المرأة و مسألة تحريرها و مساواتها بالرجل . و نحن هنا لا نقدم دراسة حول هذا الموضوع، بل مقتبسات من روايات دوستويفسكي الرائعة، أو الأكثر شهرة، مثل " الجريمة و العقاب" و "مذلون مهانون" و "الأبله" و " الشياطين"و "الأخوة كارامازوف". كما يجب أن لا تؤخذ بعض التعبيرات الصريحة

هجوماً على المرأة و لا اجحافحاً في حقها و لكن جاء تناولنا هذا من باب الثغرة التي تركت في حقل الدراسات الدوستويفسكية؛ و ما هتافات و صرخات دوستويفسكي حول هذه القضية سوى كشف زيف المجتمع أبان حكم القياصرة ، هذا من جانب و من جانب آخر أسلوب دوستويفسكي نفسه في تعرية القضايا الاجتماعية و سبر أغوار الطبيعة البشرية. هذا كل ما نستطيع تعليله، و يبقى الحكم الأخير للقارىء الكريم.

و في رواية"الشياطين" أو "الأبالسة"، يهتف دوستويفسكي على لسان أحد أبطاله:" يا صديقي المسكين، إنك لا تعرف المرأة، أما أنا فلم أفعل شيئاً غير دراسة المرأة. إذا أردت أن تنتصر على العالم بكامله، فانتصر على نفسك. فما الذي سأصل إليه بدلاً من أن أغزو العالم؟ يا عزيزي، إن الزواج موت روحي لكل نفس مستقلة ذات كبرياء. الزواج سوف يحللني و يفسدني، سوف يحرمني من القدرة و الطاقة، سوف يحرمني من الهمة اللازمة لتحقيق مهمتي. سوف يكون لنا أولاد. و أكثر من ذلك أن هؤلاء الأولاد قد لا يكونون

مني أنا. ماذا أقول؟ بل إنهم لن يكونوا مني حتماً. إن الرجل الحكيم لا يخشى أن ينظر إلى الحقيقة مواجهة.... **فالمرأة قادرة على أن تخادع حتى عين الله التي ترى كل شيء**. ... حين خلق الله المرأة فقد كان يعرف ما ينبغي له أن يتوقعه. و لكنني على يقين من أن المرأة قد تدخلت هي نفسها في خلقها، فأجبرت الله على أن يخلقها كما هي الآن... بكل صفاتها و خصائصها. و إلا فمن ذا الذي يقبل أن يهيء لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة؟ "[41]

و ينتقل بنا دوستويفسكي إلى وادٍ آخر أكثر وعورة ليعلن لنا:" ... ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً، و لكنه قطع صلته بها لا لسبب آخر غير إشهار تشيعه للمذهب العدمي. و هو من أن يجعل الفضيحة أبهر للأبصار تحدى الناس فتزوج امرأة ضائعة ليبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه **ليس ثمة نساء ساقطات و نساء فاضلات، و إنما هنالك المرأة المتحررة فحسب. ...**

[41] دوستويفسكي، الشياطين، ترجمة سامي الدروبي، ص ٢٠٣- ٢٠٤

و إنما يؤمن بقضية المرأة وحدها دون سواها؛ بل هو يزعم إن للمرأة الساقطة في نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التي لم تسقط". [٤٢]

"إن هذه المرأة تعدني شخصاً جديراً بالاحتقار، لأنني على علمي بأنها خليلة رجل آخر، أرضى أن أتزوجها في سبيل المال صراحة. و لكنها لا يخطر ببالها أن شخصاً آخر كان يمكن أن يخدعها بطريقة أحقر و أدنأ، كأن يأخذ يحدثها مفيضاً مسهباً عن الأفكار اللبرالية و الآراء التقدمية و تحرير المرأة و ما إلى ذلك، ليجرها بعد ذلك من أنفها!

... هناك نساء لا يصلحن لأن يتخذن إلا خليلات.

أنا أيضاً قليلة الحياء خالعة العذار! لقد كنت خليلة توتسكي أعاشره سفاحاً!

هكذا أنتم جميعاً. ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة و الغانية البغي، و ليس ثمة خيار آخر! فإن لم تفعلوا ذلك تحيرتم و ارتبكتم و اختلطت أموركم..." [٤٣]

---

[٤٢] فيدور دوستويفسكي، الأبله، ترجمة سامي الدروبي، الجزء الثاني، ص٤٥٨-٤٥٩

[٤٣] نفسه، الجزء الأول، ص ٣١٣

و يضيف دوستويفسكي" "... لقد كان وجه تلك المرأة دائماً شيء يعذب نفسه عذاباً مبرحاً. إن مجرد النظر إلى صورة هذه المرأة الشابة يوقظ في نفسه جميع آلام الشفقة. إن عاطفة الشفقة هذه التي بلغت حدّ الألم لم تبارحه في يوم من الأيام، و ما تزال مستبدة به إلى الآن، بل إنها لتشتد مزيداً من الاشتداد يوماً بعد يوم.

هل تعلم أن في وسع امرأة أن تعذب رجلاً تعذيباً قاسياً، و أن تتخذه أضحوكة و تجعله موضع سخرية و تهكم، دون أن يشعر ضميرها من ذلك بأي عذاب؟ ذلك أنها كلما رأتك، تقول لنفسها: سوف أعذبه الآن تعذيباً قاتلاً، و لكنني سأعوضه عن هذا في المستقبل حباً..."[44]

يتسأل دوستويفسكي" من ذا الذي يستطيع أن يفهم أحزان الفتيات و نزواتهن؟ فالمرأة مثلاً تحتاج أحياناً إلى الشعور بأنها شقية مذلة، و لو لم يكن هنالك شقاء و لا إذلال.

---

[44] نفسه، الجزء الثاني ، ص ٥٣ و ص ٨٠

لقد لاحظت في طبع النساء صفة عامة تميزهن، هي أن المرأة حين تخطىء، تؤثر أن تمحو خطأها بالمداراة و التدليل فيما بعد، على أن تعترف حالاً و أن تعتذر عنه، رغم أنها تكون مقتنعة كل الاقتناع بأنها أخطأت.

نعم ياشاعري، إذا كان لا يزال في هذا العالم الأدنى شيء جميل لذيد فهو النساء.

إذن فاعلم أنه ليس بين النساء امرأة تضارعها فسقاً و مجوناً... لقد كان لي شرف الحظوة بثقتها كاملة. و أقول لك باختصار إنني كنت خليلها سراً، و كنا ندبر خلواتنا ببراعة محكمة، حتى أن أحداً من خدمها لم يكن أن يراوده طيف من شك.

... و لكن كانت لها فتنة لا تقاوم، و كان لها إغراء لا سبيل إلى الصمود أمامه. إنني، حتى الآن، لا أتذكرها إلا و تسري في جسدي نشوة. و كانت و هي في حمّى اللذة العنيفة الحارة، تضحك فجأة كأن بها مساً،..

و أحب النساء خاصة، أحب النساء بشتى جوانبهن، أحب حتى الفجور المظلم، المختفي، الغريب، الشاذ، بل و القذر بعض القذارة، من قبيل التغيير..."[45]

و في رواية"المراهق" يأخذنا دوستويفسكي على أنه يجهل شؤون النساء و لكن إذا أردت سبر غورهن ينبغي عليك أن تكون موهباً و إلا لا شيء: " صحيح أنني لا أعرف عن شؤون النساء شيئاً، و لا أريد أن أعرف شيئاً أيضاً، و سأظل استخف بهذا ما حييت، فقد آليت على نفسي أن لا أحفل به، و لكنني أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتنك بجمالها أو بما لا أدري، في طرفة عين؛ و رب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر و أن ترى هذا السحر. فهذه المرأة الثانية، إذا أردت أن تراها كاملة و أن تحبها لا يكفي أن تنظر إليها، و لا يكفي أن تكون مستعداً للإقدام على أي شيء، و إنما ينبغي لك أن تكون موهباً بشيء آخر.

---

[45] دوستويفسكي، مذلون مهانون، ص٦٥ و ص ٢٨٩ و ص ٤٠١-٤٠٧

إنني من ذلك على يقين رغم أنني لا أعرف شيئاً، و إلا كان يجب أن ننزل جميع النساء إلى منزلة الحيوانات الداجنة و أن لا نحتفظ بها لدينا إلا على هذه الصورة. و لعل هذا ما يتمناه كثير من الناس".[٤٦]

و يأخذنا تحليل هنري ترويا على أن المرأة لدي دوستويفسكي لا وجود لها، إلا باعتبارها " كعنصر كاشف. و مكانها بين الرجل و الله، ليس عديم الجدوى. فهي هناك لكي توقظ الرجل على الألم، لكي تعذبه، لكي تصرعه، لكي تنهضه و ترفعه، و لكي تجذبه خارج نطاق القوانين الأخلاقية، و لتلقي به و هو يختلج و يلهث، و قد استولت عليه الدهشة، و بدا جديداً تماماً، في عالم الحرية، الذي يفوق الوصف. و هي تمثل الإغراء، بل الغواية، التي بها يعلن الهدوء النهائي.

... و النساء بالنسبة له، ليس لهن قيمة خاصة، إنهن وسائل، و لسن هدفاً و غاية، و في معظم الأوقات، المرأة تخدم رجلين في آن واحد. و كل من هذين الرجلين يبدو منجذباً إلى هذه المرأة نفسها لأسباب

[٤٦] دوسويفسكي، المراهق، ترجمة سامي الدروبي، الجزء الأول، ص ٢٢

مختلفة. و كما أن كل رجل يستطيع أن يحب امرأتين في آن معاً. فالمرأة تمهد و تهيئ لازدواج الشخصية المذكرة. حب شفقة، حب متعة". [٤٧]

و في "الأخوة كرامازوف"- "... قل لي يا أليوشا: ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً، شامراً ثوبك الرهباني، هه؟

... شيطان يأخذ النساء! هل من الممكن أن يكون الأمر غير ما هو الآن؟... ها هي ذي الآن ... تسل خنجراً تطعن به القلب! ... هكذا هنّ النساء![٤٨]

" إن هذه المرأة المتكبرة لم تكن في حاجة إلى صداقتي. و هي لم تحتفظ بي إلى جانبها إلا لتستطيع إرواء ظمئها إلى الانتقام، إلا لتثأر مني، نعم مني أنا، لجميع الإذلالات و الإهانات التي أنزلها فيها دمتري منذ أول لقاء بينهما"

[٤٧] هنري ترويا، دوستويفسكي: حياته - أعماله، ترجمة على باشا، ص ٤٢٢-٤٢٣ ، دار علاء الدين، دمشق-٢٠٠٦

[٤٨] الأخوة كرامازوف، الجزء الأول ص ٣٣٨-٣٣٩

- لا تصدق دموع النساء، يا ألكسي فيدورفيتش! أنا في هذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة. أنا مع الرجال. .. ذلك ما يجب أن يحدث... أنا أقف دائماً ضدّ النساء في هذه المناسبات، ضد نوباتهن و دموعهن". [49]

"... إنه ينتمي(يقصد به ميتيا- إضافة) إلى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة، و يعانون عذاباً رهيباً من تصور خيانتها لهم أثناء غيابهم.

إن الغيورين أسرع الناس إلى الغفران، و النساء يعرفن هذا! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة(بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً).. و هل المرأة التي يعتقدون أنها تخونهم تستحق منهم هذا الحب كله. ..." [50]

و ها هي جروشنكا تندفع و تسقط عند قدمي رئيس الشرطة، و أعولت تقول بصوت ممزق، و هي تبكي بكاء غزيراً و تمد ذراعيها نحو الحضور:" أنا المذنبة، أنا الشقية المذنبة. بسببي إنما قتل! أنا التي

---

[49] نفسه، الجزء الثاني، ص ٧١، ٧٦-٧٧

[50] نفسه، الجزء الثالث، ص ١١١-١١٣

قدته إلى تلك ذلك من كثرة ما عذبته... لقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً، بدافع الشر الذي بنفسي... أنا سبب كل شيء، أنا، أنا وحدي. أنا القاتلة في حقيقة الأمر".[51]

قال أليوشا:

قولي ما يمليه عليك الشرف. لا حاجة إلى أكثر من ذلك.

فأجابت بقسوة: ليست المرأة شريفة دائماً. [52]

و هنا نجد ميتيا(دميتري كارامازوف) يعتبر المرأة مخلوقة ليس بوسع أي شخص يفهمها سوى الشيطان. الشيطان وحده هو الذي يعرف المرأة حق معرفة. و عندما زارت جروشنكا ميتيا، صاح:" إن صورة جروشنكا تقتلني، تقتلني قتلاً، تقتلني قتلاً! ... لقد عذبتها بالغيرة. و حين ودعتها ندمت و قبلتها و لكنني لم استغفرها.

صاح أليوشا يسأله: لماذا لم تستغفرها؟

-حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها، على خطيئة ارتكبتها فعلاً... لا سيما المرأة التي تحبها، مهما تكن أخطاؤك في

---

[51] نفسه، الجزء الثالث، ص ٢٦٥

[52] نفسه، الجزء الرابع، ص ٢٦٥

حقها، **لأن المرأة مخلوقة لا يعرف إلا الشيطان ما في نفسها**. أنا خبير في هذا على الأقل. حاول مرة أن تعترف لها بأنك أذنبت في حقها، و أن تقول لها: أنا مذنب، فاغفري لي، اغفري لي. لتسمعن منها عندئذ سيلاً من ملامات. لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة، بل ستأخذ تذلّلك و تخفضك في الأرض، معددة جميع أخطائك، حتى تلك التي لم تقترفها. لن تنسى شيئاً، سوف تضخم كل شيء، و ستختلق أخطاء جديدة عند الحاجة، و بعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك. و خير النساء هنّ اللواتي يغفرن على هذا النحو. و لكنها ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها و تلقيها على رأسك. تلك هي القسوة الكاسرة المفترسة القابعة فيهنّ جميعاً. أعلم هذا، كذلك خلقن، من أولاهن إلى آخرهن، هاته الملائكة اللواتي لا نستطيع أن نحيا بدونهن. سأطلعك بغير تكلف و لا تحرج على حقيقة كبرى ياصغيري الطيب: **إن كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة**."[٥٣]

---

[٥٣] نفسه، ص ١٧٢-١٧٣

و في "الجريمة و العقاب "نجد مارميلادوف السكير زوج كاترينا ايفانوفنا يصيح و كله حسرة و ندم: كيف سأكسو هؤلاء الأولاد، كيف سأهيىء لها الهدوء و السكينة و الطمأنينة، كيف سأنتزع ابنتي الوحيدة من وهدة العار و أردها إلى أحضان الأسرة... إن القاضي الأعلى سيظهر في يوم الحساب فيسأل: أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة، في سبيل صغار امرأة أخرى؟ أين هي تلك الفتاة المسكينة التي أشفقت على أبيها الدنيوي، السكير الذي لا برء له، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته؟[٥٤]

و مع ذلك كان مارميلادوف يجد لذة عندما تنهال عليه تلك الزوجة بالضرب و الإهانات و خاصة عندما يعود إلى المنزل مخموراً فهو يقول بينما يجر من شعره: هذه لذة بالنسبة إلي! ليس هذا ألماً ياسيدي الكريم بل لذة!"[٥٥]

[٥٤] دوستويفسكي، الجريمة و العقاب، ترجمة سامي الدروبي، الجزء الأول،ص ٤٣، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ٢٠١٠.
[٥٥] نفسه، ص ٤٦ و ص٥٠

و ها هو راسكولنيكوف يراقب تلك الفتاة الصغيرة محاولاً إنقاذها من ملاحقة سيد أنيق ساعياً لغرض غير عفيف، قائلاً: "ياللصغيرة المسكينة! سوف تصحو فتبكي، و سوف تعلم أمها بكل شيء... فتضربها أولاً، ثم تجلدها جلداً أليماً فيه أبلغ الإذلال و أعمق الإهانة... و قد تطردها من البيت... و هبها لم تطردها، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فارنتسوفنا... و ستأخذ الفتاة تجرى هنا و هناك، ... ثم سرعان ما تنقل إلى المستشفى(تلك دائماً حال البنات اللواتي يعشن مع أمهات شريفات جداً و يتعاطين الفحش خفية) ... ثم تنقل إلى المستشفى من جديد.. شراب و حانات ثم المستشفى دائماً ... و ما أن تنقضي سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً ... ما أن تبلغ الثامنة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي![٥٦]

و راسكولنيكوف هذا يقف الآن أمام سونيا-ابنة مارميلادوف التي زجت نفسها في الفاحشة من أجل إنقاذ صغار امرأة أبيها- حائراً و متسائلاً:" و سيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً.

---

[٥٦] نفسه، ص ٨٨

فهتفت سونيا تقول بصوت قوي، طائش، كأنها طعنت بخنجر: لا، لا، هذا مستحيل. إن الله لن يسمح بمثل هذا السقوط!

- دعك من هذا الكلام! إنه يسمح بمثله و أكثر.

فردّدت سونيا تقول خارجة عن طورها: لا، لا إن الله سيحميها!

- أجاب راسكولنكوف بفرح خبيث:

- و لكن قد لا يكون هناك إله!

... أمسك كتفيها بيديه. و أنعم النظر إلى وجهها الغارق في الدموع. كانت نظرته جافة، ملتهبة، حادة. و كانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً... و انحنى فجأة بحركة سريعة، فسجد أمامها، و قبّل قدميها. تراجعت سونيا مروّعة و كأنها ترى مجنوناً. و الحق أن هيئته كانت هيئة مجنون.

تمتمت تقول شاحبة الوجه، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً: ماذا تفعل؟ ما هذا الذي تفعله؟ أأمامي أنا، تسجد؟

نهض، و قال بلهجة وحشية: أنا لا أسجد أمامك أنت... بل أمام معاناة البشرية كلها..

هتفت سونيا تقول مرتاعة: ... و لكنني أعيش في العار! إنني خاطئة، خاطئة!

ثم قال خارجاً عن طوره: ... كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار و مثل هذه الحطة مع أنبل العواطف و أقدس المشاعر؟

... فما الذي كان يبقيها على هذا الطريق إذاً؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً، فإن هذا العار كله(ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مساً آلياً بحكم طبيعة الأشياء، أما قلبها فلم تتسلل إليه قطرة واحدة من رذيلة.

قال راسكولنكوف يحدث نفسه:" هناك ثلاث طرق تنفتح أمامها: أن تلقي بنفسها في القناة، أن تصير إلى ملجأ للمجانين... أن تندفع في الدعارة التي تخبل العقل و تجمد القلب".[٥٧]

كان لوجين(بيوتر بتروفتش) يخاطب صديقه الشاب أندريه سيميونوفنش ليبزياتنيكوف ساخراً من قضية المرأة:" أنظر إلى قضية المرأة... عندنا(المرأة التي تنتمي الآن إلى الكمونة) لقد تركت أهلها ... و استسلمت لرجل، فأخذوا عليها أنها كتبت إلى أبويها

---

[٥٧] نفسه، الجزء الثاني ص ٧٢-٧٥

قائلة إنها أصبحت لا تريد أن تعيش في الأوهام الاجتماعية، و أنها تؤثر الزواج الحر....

ثم إن هذه الفتاة من حقها، الآن أيضاً، أن تعيش كما تعيش. أنها تتألم، و جسدها هو رأس مالها إن صح التعبير، ففي وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذي تشاء. صحيح أن رؤوس الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود، و لكن دور البغي سيتخذ دلالة أخرى، و سيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً.

اعترت ليبزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف، و زأر يقول: هذه أيضاً نمائم! إن الأمور لم تجر على هذا النحو،...

نحن ننشد حرية المرأة، و أنت ليس في رأسك إلا... إذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام، و هي شيء لا جدوى منه في ذاته، بل هي شيء سخيف أيضاً،فإنني أقبل تحفظها معي كل القبول: فما دامت هذه إرادتها فمن حقها أن...أنت لا تفهم شيئاً، سبق أن قلت لك ذلك! صحيح أنها مومس، و لكن المسألة ليست هنا، ليست هنا البتة! أنت تحتقرها، لا أكثر و لا أقل. ...

و لكن الزواج الحر هو الذي لن تكون فيه قرون؟ ليست القرون إلا نتيجة طبيعية للزواج الشرعي. إنها تعديل له إن صح التعبير. إنها الاحتجاج عليه. و بهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيء من مذلة. فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً و هذا افتراض مستحيل لكان يسرني و يسعدني أن ينبت لي قرنان من تلك القرون الملعونة التي تتحدثون عنها...

أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته في الزواج الشرعي، و لكن هذا بعينه إنما هو النتيجة البائسة لواقعة هي أيضاً بائسة، بالنسبة إلى الطرفين كليهما... "[٥٨]

"لماذا يجب عليّ أن ألجم اندفاعاتي و أكبت رغباتي؟ لماذا أعدل عن النساء و أنا أهواهن؟ إنهن شاغل على الأقل..." هكذا كان رد سفدريجايلوف على تساؤل راسكولنيكوف، و يواصل حديثه عن الدعارة أو الفسق: ... **إن للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الإنسانية و لا يخضع لنزوات الخيال، شيئاً باقياً مستمراً في الدم، لجذوة متوهجة، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب، لا تنطفيء في**

---

[٥٨] نفسه، الجزء الثاني، ص ١٤٨،١٤٦،١٤٥، ١٥٩،١٤٩

وقت مبكر، بل لا تقضي عليها السنون. ثم إن عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل..."[59]

و عندما افتتن سفدريجايلوف بخادمته باراشا-باراشا السمراء- لجأ إلى "الوسيلة القصوى التي لا تخطيء هدفها من قلب المرأة قط، و لا تخيب الظن فيها أبداً، بل تحقق غايتها و تؤثر في جميع النساء دون استثناء، أعني التملق بالمديح" على حد تعبيره. و أردف قائلاً:" لقد بلغت من التحمس صدقني إن شئت! إنني لو أمرتني أن أذبح أو أن أسمم مارفا بتروفنا(زوجته) من أجل أن أصبح زوجها هي، لفعلت ذلك على الفور".[60]

أما دوستويفسكي نفسه فعندما كان يعيش في سميبالانينسك حيث "تزوج من أرملة السجين أيساييف، دون أن يكون بينهما ذلك الحب الكبير. كان حب يحمل في ثناياه إضافة إلى العطف الطاغي، الشفقه و الحنان، كما يقترن بحاجة إلى تفانٍ ما، و بنزوع طبيعي إلى

[59] نفسه، ص ٣٠٤ و ص ٣١٥
[60] نفسه، ص ٣٠٤ و ص ٣١٥

تحمل الأعباء و عدم التراجع أمام مسؤولية."[61] و في هذا الشأن كتب دوستويفسكي خطاباً إلى صديقه فرانجل بعد وفاة زوجته هذه جاء فيه: آه، يا صديقي! كانت تحبني حباً جماً، و كنت أبادلها هذا الحب. و مع ذلك، لم نكن سعداء معاً. سأخبرك بكل هذه الأمور حين أراك في ما بعد. يكفي أن تعلم أنه، رغم تعاستنا الكبرى معاً- بسبب طبعها الغريب، بوساوسه و شذوذه المرضي- لم يكن حبنا ينقطع، بل كنا، كلما ازداد شقاؤنا ازداد تعلق أحدنا بالآخر. مهما يبدو الأمر غريباً، فلقد كان كذلك".[62]

ثانياً: صدى الجريمة في روايات دوستويفسكي

سوف أسوق هنا مثالاً عن فن الصياغة الأدبية لمفهوم الجريمة أو عملية ارتكاب الجريمة في روايات دوستويفسكي. و هذا المثال مقتبس من ملحمته الرائعة"الأخوة كارامازوف"[63]، علماً بإن الرواية نفسها تدور حول موضوع الجريمة أو جريمة قتل الأب على

[61] اندريه جيد، دوستويفسكي: مقالات و محاضرات، ترجمة الياس حنا الياس، ص ٣٤، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٨

[62] اندريه جيد، دوستويفسكي: مقالات و محاضرات، ترجمة الياس حنا الياس، ص ٣٤، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٨

[63] دوستويفسكي، الأخوة كارمازوف، الجزء الثاني، ترجمة سامي الدروبي، ص ٢٩٦-٣١١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ٢٠١٠

وجه التحديد؛ و هذا ما دفع رائد التحليل النفسي سيغموند فرويد أن يخصص دراسة سيكولوجية حول هذا الموضوع لسنا بصددها. كما أن الكاتب نفسه له رواية كاملة حول موضوع الجريمة وهي "الجريمة و العقاب".

و إليكم المثال الذي جاء تحت عنوان" الزائر الغامض" من المقتطفات التي جمعها و دونها الكسي فيدورفتش كارامازوف (أليوشا) عن حياة الكاهن الراهب الشيخ زوسيما:

" لقد ارتكب هذا الرجل فعلاً جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً: قتل امرأة شابة غنية، جميلة جداً، كانت أرملة رجل من مالكي الأطيان، و كان لها في مدينتنا دار تقيم فيها من حين إلى حين. لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديداً، و توله بها تولهاً مشبوباً، و صارحها ذات يوم بحبه، و حاول أن يقنعها بزواجه. و لكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط في الجيش عالي الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ في حملة حربية و كان عليه أن يعود إليها قريباً. لذلك رفضت عرض صاحبي، و رجته أن لا يجيء إليها بعد ذلك اليوم أبداً. فلما

صرفته بهذه الخشونة و أصبح لا يستطيع أن يزورها، تسلل ذات ليلة إلى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة و السطح، متهوراً أشد التهور، معرضاً نفسه لأن يكتشف. و لكن الحظ واتاه، كما يحدث هذا كثيراً في الجرائم الجريئة، فنفذ إلى دارها من كوة في السطح، ثم هبط السلم المؤدي من طابق السقف إلى شقة السيدة. كان يعلم أن الباب الذي يوجد في أسفل هذا السلم يظل مفتوحاً في كثير من الأحيان بسبب إهمال الخدم. و على هذا إنما كان يعوّل صاحبنا، فصدق حسابه. عندما صار في الشقة اتجه في الظلام إلى غرفة نوم السيدة التي كان يشتعل فيها سراج. و شاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء، دون أن تستأذناها، و ذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتفل بعيد شفيعتها و تسكن غير بعيد. أما الخدم و الخادمات فقد كانوا ينامون في الملقات أو في المطبخ بالطابق الأدنى. فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواه و استعر، فإذا بغيرة حانقة ظامئة إلى الانتقام

تشب في قلبه، و إذا هو يقترب من السيدة كالسكران، و يغمد في قلبها سكيناً و هو لا يدرك ماذا يفعل.

لم يتسع وقت السيدة لإطلاق صرخة. و رتب الرجل أموره بمكر شيطاني و حيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على الخدم. لم يرض أن يستولي على محفظة القتيلة، و إنما فتح أدراج خزانتها مستعيناً بمفاتيح وجدها تحت وسادتها، فاختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل. لم يمد يده إلى السندات و الصكوك و الأوراق التي لها قيمة كبيرة، و إنما سرق الأموال النقدية، و سرق الحلي الذهبية مسترشداً بحجمها و وزنها، محتقراً التحف الصغيرة الحجم التي يفوق ثمنها ثمن الحلي الذهبية أضعافاً مضاعفة. و سرق كذلك كتذكار عنها بعض الأشياء و سوف نتحدث عنها فيما بعد. حتى غذا أتم جريمته على هذا النحو، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذي اتبعه في الدخول. و لم يخطر ببال أحد على الإطلاق، لا في الغد حين اكتشفت الجريمة، و لا في أية لحظة من لحظات حياته، أن يشك فيه باعتباره الجاني الحقيقي.

و كان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام، و لم يكن له أصدقاء يمكن أن يسرّ إليهم بشؤونه. كان الناس يعدونه أحد معارف القتيل لا أكثر، حتى إنهم كانوا لا يعدونه من معارفها المقرّبين، لأنهم لم يروه في منزلها خلال الأسبوعين الأخيرين قبل وقوع المأساة. و انصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بيتر، و كانت جميع الظروف تشير إليه و تتهمه. كان هذا الخادم يجهل أن المتوفاة- التي لم تكن تخفي ما عقدت نيتها عليه- تريد أن تدخله في قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية، أولاً لأنه عازب، و ثانياً لأنه سيء السلوك. و قد سمعه الناس في إحدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل و هو في حالة سكر شديد و حنق قوي.

و قبل وقوع الجريمة بيومين كان قد هرب من الدار و اختفى في المدينة في أماكن مجهولة. و في غداة الجريمة، و جد على الطريق، غير بعيد عن المدينة فاقد الوعي من شدة السكر، في جيبه سكين و يده اليمنى ملطخة بدم. و قد فسّر هو ذلك بأن أنفه نزف، و لكن لم

يصدّق. و اعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً، و أقرّتا بأن باب الدار ظل مفتوحاً عن لهو و غفلة حتى عودتهما. و جاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه، باعتقل الخادم البريء، و أودع السجن، و كان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع، ثم مات في المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته. و أغلق التحقيق، و لم يبق إلا تسليم الأمر لله... و ظل جميع الناس، القضاة و رجال السلطة و أبناء المجتمع في المدينة، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى. و عندئذ إنما بدأ العاب.

و قد أسرّ إليّ الزائر الغامض، الذي أصبح في ذلك الحين صديقاً، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الآونة الأولى إطلاقاً. صحيح أنه تألم زمناً طويلاً، و لكن ألمه كان حسرة على أنه قتل المرأة التي يحبها و على أنه فقد غلى الأبد كل أمل في أن يسعد بقربها، و كانت نا الحب ما تزال تكوي عروقه. أما إنه سفح دماً و قتل إنساناً بريئاً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً آنذاك، و لم يكن يفكر هو فيه إلا نادراً. كان إذا

تصوّر أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور؛ و كان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف إلا كما تصرف. و قد هزّه اعتقال الخادم في أول الأمر، و لكن مرض المتهم و وفاته لم يلبثا أن ردا إليه هدوءه و طمأنينته، إذا كان واضحاً(هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب خوفه، و إنما مات بسبب البرد الذي أصابه أثناء هروبه، حين بات ليلة بكاملها على الرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما المال و الأشياء المسروقة فإنه لم يأبه لها قط، لأنه (هذا ما كان يقول لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً. ثم إن قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً، و سرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذي أنشىء في المدينة في الآونة الأخيرة مبلغاً يساوي قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً. و قد فعل ذلك ليهدئ ضميره في موضوع السرقة، و مما يستحق الذكر أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرّ هو إلي بذلك. و اندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق في هذا النشاط، و استطاع أن

يحصل على أن يعهد إليه مهمة صعبة متعبة شغلته خلال سنتين، و إذا كان رجلاً جمّ النشاط فائض القوى فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التي ارتكبها نسياناً يشبه أن يكون كاملاً. و كان إذا راودته ذكراها يبادر إلى طرد هذه الذكرى. و قد انصرف أيضاً إلى البر و الإحسان فدعم و أنشأ أعمالاً خيرية كثيرة في مدينتنا، و ذاع صيته في العاصمتين، فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو و بطرسبرج. غير أن قلقاً أليماً قد استيقظ في نفسه بمرور الزمن، و أخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد إلحاحاً و ما تنفك تنقص اندفاعه في العمل. و تعرّف في تلك الفترة إلى امرأة شابة جميلة ذكية، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزوج أن يطرد كآبته و يبدد قلقه كان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جديدة و أصبح ينهض، في همة و نشاط، بواجباته نحو امرأته و أولاده، فإنه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصاً تاماً. و لكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، و إنما تحقق نقيضه.

فإنه منذ الشهر الأول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه و تقضّ مضجعه:"صحيح أن زوجتي تحبني. و لكن كيف عساها تتصرف إذا عرفت الحقيقة؟" و حين أسرّت إليه أول مرة أنها ستصبح أماً اضطرب و قال لنفسه:" أأهب الحياة أنا الذي انتزعت الحياة؟" ثم لما ظهر الأولاد، أصبحت تهاجمه و تلازمه أسئلة أخرى: "كيف أجرؤ أن أحبهم و أن أربيهم و أنشئهم كأنني أستاذ بعلم الفضيلة، في حين أنني سفحت دماً؟" و كان أولاده على غاية من الظرف و الجمال، و لكنه كان إذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه:" لست جديراً بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التي تتلألأ فيها براءة نفوسهم". و أخيراً انبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، انبجس وعيداً مرعباً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب إلى الانتقام! و أصبحت توافيه في الليل كوابيس مرهقة. و مع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه و ثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً، و استطاع أن يقبله قائلاً لنفسه إنه سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته. و لكن أمله هذا قد خاب أيضاً. فإن القلق الداخلي ما انفك

يزداد و يتفاقم. و الناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لبره و إحسانه، مع تهيبهم قوة طبعه و انغلاق نفسه. و لكنه كان يزداد شعوراً بالإرهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له و قد اعترف لي بأنه فكر في الانتحار غير مرة. غير أن قراراً آخر قد أخذ ينضج في نفسه، قراراً بد في أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً و لكنه ما زال يستولي على وجدانه و يترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره. كان يقول لنفسه:" يجب أن أنهض و أعلن أمام جميع الناس أنني قاتل و أسلم نفسي للقضاء". و ظل ثلاث سنين يحمل في خياله هذا الحلم الذي يعاوده في صور جديدة و جديدة بغير انقطاع. و انتهى إلى الاقتناع بأنه سيشفي روحه و سيسترد أمنه الداخلي إلى الأبد، إذا هو اعترف بجريمته. و لكن ما إن تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه، فأصبح يقول لنفسه:" كيف أفعل مثل هذا؟" و في ذلك الحين إنما وقعت المبارزة بيني و بين ذلك الرجل.

قال لي الزائر: حين نظرت إليك وجدت في نفسي القوة على أن أعزم أمري و أتخذ قراري.

نظرت إليه فهتفت أسأله و أنا أضم يدي إحدهما إلى الأخرى: هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد في نفسك عزيمة كهذه العزيمة؟

فأجابني قائلاً: إن هذه العزيمة كانت تنضج في نفسي خلال ثلاث سنين، و لم تزد مبارزتك على أن أخرجتها إلى النور. إنني إزاء المثل الذي ضربته أنت قد استحييت من ضعفي و حسدتك:

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية. قلت: لن يصدّقوك، فبعد أربعة عشر عاماً...

- عندي براهين، براهين رهيبة، لا يمكن دحضها... سأقدم هذه البراهين.

بكيت و عانقته.

و قال لي بعد ذلك كأنه يخاطب إنساناً يتعلق به مصيره: أجبني مع ذلك سؤال. سؤال واحد: مالذي سيحدث في هذه الحالة لزوجتي و أولادي؟ قد تموت زوجتي حزناً. أما أولادي فإنهم لن تسقط عنهم نبالتهم و لن يحرموا من أموالهم، و لكنهم سيظلون إلى الأبد

أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة. و أية ذكرى سيحفظونها عني؟

صمتّ فلم أقل شيئاً.

و أردف يقول: سيكون عليّ أن أنفصل عنهم و أن أتركهم إلى الأبد! إلى الأبد حقاً!

لم أجب بشيء، و كنت أتلو صلاة بصوت خافت. و نهضت أخيراً و قد امتلأت نفسي رعباً و فزعاً. سألني و هو ينظر إليّ: هيه ماذا؟

قلت: أذهب و أعترف بجريمتك أمام جميع الناس و سلّم نفسك للقضاء. كل شيء سينقضي و تبقى الحقيقة وحدها. و سيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت إليه من نبل و سموٍ روحي في سبيل اتخاذ هذا القرار.

تركني في ذلك المساء و قد بدا عليه واضحاً أنه قد قرّر أن يعترف بجريمته.

و لكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك، يجيء إليّ كلّ مساء تقريباً، و يستعدّ كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه، حتى إذا جاء

الغد جبن في آخر لحظة عن تحقيق عزمه. و كان تردده يقلقني و يعذبني. إنه يبدو في بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة، فها هو ذا يقول في رقة و حنان:

أنا أدري أنني سأعرف الجنة متى اعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم. أريد أن أتألم. سأقبل المحنة و سأستأنف الحياة. الكذب لا يؤدي إلا إلى الظلمات، و هو يسد الطريق نحو الضياء إلى الأبد! أنا الآن لا أجرؤ أن أحب حتى أولادي فكيف بالناس! سيفهم أولادي... آه يارب! سيفهمون ما قاسيت و لن يدينوني! لا يظهر الرب في القوة، بل في العدل.

- سيفهمون القرار الذي اتخذته، و سيستحسنونه جميعاً إن لم يكن فوراً ففي المستقبل حتماً. إنك بهذا العمل تخدم الحقيقة، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضي...

انصرف بعد ذلك و قد رضيت نفسه و اشتد إزره، و لكنني رأيته في الغد عائداً إليّ و قد شحب وجهه و تشعّنت هيئته، فقال لي بلجة فيها سخرية:

- كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فيّ كمن يقول لنفسه:"لم يقرر بعد!" صبرك و لا تتسرع في احتقاري: إن إنقاذ هذا الأمر أصعب مما تظن. و من يدري؟ فقد أعدل عنه أخيراً! أحسب أنك لن تمضي تشي بي!

و الحق أنني لم أتفرس فيه مستطلعاً، فلقد كنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر إليه. كانت المسألة الداخلية تمرضني، و كنت أهمّ أن أبكي في كل حين، حتى لأوشك أن أحرم النوم. قال يوماً حين وصل إلي: تركت امرأتي منذ هنيهة. هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة:" امرأتي؟. . . لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل:"عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا مجلة الأطفال" لا . . . إنك لا تستطيع أن تفهم هذا! إن شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفاً.

و سطعت عيناه و اختلجت شفتاه. و ضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها أخذت تهتز. إن هذه البادرة تبدو أمراً خارقاً من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة و رقة في العادة.

هتف يقول: أهذا ضروري فعلاً؟ أهو مفيد حقاً أن أشي بنفسي؟ ما الداعي إلى هذا الاعتراف و لم يحكم على أحد بسبب جريمتي، و لم يرسل بريء إلى السجن بدلاً عني، و قد مات الخادم من مرض؟ أما الدم المسفوح فإنني أكفر عنه بآلامي و عذابي. ثم إنهم لن يصّدقوني، و سيبعدون الأدلة التي يمكن أن أقدمها. ففيم أشي بنفسي؟ هلاّ قلت لي فيم أشي بنفسي! إنني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي، شريطة أن لا أجر زوجتي و أولادي معي إلى الشقاء. هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد؟ أين الحقيقة؟ و هل هؤلاء الناس جميعاً قادرون حقاً على أني يدركوا الحقيقة، و على ان يقدرونها و يحترمونها كما يجب أن تقدر و تحترم؟

قلت أخاطب نفسي:" رباه! إنه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه اللحظة!" و اجتاحت نفسي عندئذ شفقة شديدة عليه حت بدا لي أنني مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه. لقد انقلبت سحنته انقلاباً رهيباً. و ما كان أشد انصعاقي حين أدركت

لا بعقلي في هذه المرة، بل بروحي و قلبي، مدىٰ ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ!

هتف يقول: قرر مصيري!

فأجبته هامساً: أذهب و أعلن عن جريمتك و سلّم نفسك للقضاء!

كان صوتي واهناً ضعيفاً، غير أن فيه حزماً و صلابة. ثم تناولت الكتاب المقدس من علىٰ المائدة_ في ترجمته الروسية- و دللته علىٰ هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٢، الآية ٢٤: "**الحقّ الحقّ أقول لكم: إن لم تقع حبة القمح في الأرض و تمت فهي تبقى وحدها. و لكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير**". و كنت قد وقعت علىٰ هذه الآية قبل زيارته بلحظات.

قرأ الآية و قال: هذه هي الحقيقة.

و لكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة، و صمت لحظة ثم قال: ما أكثر ما يجد المرء في هذه الكتب! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام! فمن ذا الذي كتب هذا كله؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً؟

قلت:

نعم و لكنهم كتبوه بوحي من الروح القدس.

عاد يقول مبتسماً مرة أخرى، و لكن ابتسامته في هذه المرة يكاد يكون فيها كره: ما أسهل عليك أن تثرثر!

فتحت الإنجيل على موضع آخر، و أريته الآية ٣١ من الإصحاح ١٠ ،"الرسالة إلى العبرانيين". فقرأ:" **مخيف هو الوقوع في يدي الله الحيّ**".

قرأ ثم رمى الكتاب و أخذ جسمه كله يرتعد. قال: هذه الآية رهيبة. يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة.

و نهض قائلاً: الوداع. أغلب الظن أنني لن أجيء إليك بعد اليوم... سنلتقي في الجنة. لقد " وقعت إذاً في يدي الرب الحي" مدة أربعة عشر عاماً. يظهر أن عليّ أن أسمي هذه الفترة من حياتي هكذا. غداً سأضرع إلى تينك اليدين أن تتركاني...

و ددت لو أعانقه و أقبله، و لكنني لم أجرؤ. كانت قسمات وجهه منقبضة و كانت نظرته ثقيلة. خرج. تساءلت:" إلى أين يمضي هذا

الإنسان الآن يا رب!"، و ارتميت جاثياً على ركبتي أمام أيقونة العذراء. صليت باكياً لأم الرب التي تخف إلى الشفاعة و الحماية.

انقضت نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء و البكاء. أوشك الليل أن ينتصف. هذا باب الغرفة يفتح فجأة، و هذا صاحبي يظهر من جديد. أذهلتني رؤيته.

سألته: من أين جئت؟

_ نسيت... أظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظن. و هبني لم أنس شيئاً، دعني أجلس...

أجلس أنت أيضاً.

أطعته. و لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم. كان يحدّق إليّ. فجأة، ضحك ضحكة صغيرة.. أتذكر ذلك ... ثم نهض، و اقترب مني، و عانقني و قبلني.. و قال يخاطبني في هذه المرة بصيغة المفرد: تذكر مجيئي الثاني إليك هذه الليلة. لا تنس ذلك. فهمت؟

تلك أول مرة يخاطبني فيها بصيغة المفرد. ثم خرج. قلت لنفسي:"إنه فاعل غداً".

لم يخطىء ظني. كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. إنني لم أخرج منذ حين إلا لماماً، فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو إليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة. و كذلك فعل هذه السنة. حتى إذا انتهى العشاء تقدم إلى وسط الصالة، ممسكاً بيده ورقة كتب عليها اعترافاته موجهة إلى رؤسائه. كان رؤساؤه حاضرين الحفلة.

قرأ تصريحه بصوت عال، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التي ارتكبها منذ أربعة عشر عاماً. و ختم قراءته قائلاً:" أنا شيطان رجيم. و قد قررت أن أبعد نفسي عن المجتمع. لقد مستني النعمة الإلهية. أريد أن أتألم". ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التي احتفظ بها خلال تلك السنين، و التي يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته: حلي المرأة الثقيل، التي سرقها تمويهاً و دفعاً للشبهات، و الصليب و النيشان(الذي يضم صورة خطيب المرأة القتيل) و دفتراً و رسالتين، فأما الرسالة الأولى فهي من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ قريباً، و أما الثانية فهي جواب لم تتم كتابته و قد تركته على منضدتها

لترسله إلى خطيبها في الغد. ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين؟ و ماذا كان الدافع الذي دفعه بعد ذلك إلى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التي تتهمه و تعرّضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟ مهما يكن من أمر، فإليكم ما حدث: ذهل الحضور من اعترافاته، و انتابهم جزع، و لكنهم رفضوا أن يصدّقوا هذه الاعترافات. صحيح أنهم أصغوا إليه بكثير من الانتباه و الاستطلاع، و لكنهم إنما أصغوا إليه إصغاءهم إلى إنسان مريض. بعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله. و لئن لم يكن في وسع رؤسائه و رجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر، فلقد ارتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين و الأشياء التي قدّمها إن كانت تبعث على التفكير، فلا يمكن أن يبنى عليها وحدها اتهام، حتى و لو ثبت أنها للقتيلة، فمن الممكن أن تكون القتيلة قد عهدت إليه بها كصديق. و قد علمت فيما بعد أن أصدقاء الضحية و أقرباءها قد تعرفوا إلى هذه الأشياء، فلم يبق حول ذلك شك. و لكن القضية لم تحرك رغم هذا، فقد علم

بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض و أن حياته في خطر. لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه. و قد تحدث الناس عن اضطرابات قلبية. و مهما يكم من أمر، فإن الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضاً، و ذلك بإلحاح من امرأته، فانتهوا إلى أنه مصاب ببداية جنون. و لم أكشف عن اعترافاته لي طبعاً، رغم أن جميع الناس قد حاصروني بالأسئلة. و حين أردت أن أزوره مع ذلك أغلق دوني بابه، و كانت امرأته خاصة هي التي حالت بيني و بينه. قالت لي:" أنت الذي أدخلت الاضطراب النفسي و الاختلال إلى عقله! لقد كان دائماً قاتم المزاج، و أصبح اضطرابه النفسي و سلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام، فجئت أنت فأجهزت على عقله! أنت الذي حشوت رأسه بهذه الأفكار! إنه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك!" و لم يكن هذا شأن امرأته وحدها هل تصدقون هذا. " هذه خطيئتك!" هذا ما كان يقول لي الناس في كل مكان. و كنت أصمت فلا أجيب، و كنت في قرارة نفسي سعيداً. ذلك أني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي أدان نفسه و أراد أن يلقى جزاءه. أما جنونه المزعوم،

فما كان لي أن أصدقه. و سمح لي أخيراً بأن أراه، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعني. فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه، معدودات. كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء. و لكن نظرته تعبّر عن الفرح و الهدوء. قال لي:

انتصرت الحقيقة! إنني انتظرك منذ مدة طويلة، لماذا تأخرت في المجيء؟

أخفيت عنه أنني منعت من الاقتراب منه.

- لقد أشفق عنّي الرب فناداني إليه. أنا أعلم أنني سأموت، و لكن روحي قد عرفت السعادة و الطمأنينة أخيراً، لأول مرة بعد تلك السنين الطويلة كلها. لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت مستوحياً ضميري. أصبحت لا أخشى أن أحب أولادي و أن أقبلهم. إن الناس ترفض أن تصدقني! ما من أحد يريد أن يسلّم بأنني قاتل، لا زوجتي و لا قضاتي. و أولادي لن يصدقوا هذا، هم أيضاً. و في هذا أرى رأفة الله بأولادي. سوف أموت، و لكن أسمي

سيظل في نظرهم طاهراً لم يدنّس و لم يلطخ. إنني أشعر بالله الآن، و إن قلبي لمبتهج كأنني في الجنة... لقد قمت بواجبي...

لم يستطع أن يكمل كلامه، فقد انتابه اختناق، غير أن شدّ على يدي بحرارة، و نظر إليّ صامتاً، و قد سطعت عيناه بلهيب. لم نتمكن من إطالة حديثنا، لأن امرأته تشق الباب بغير انقطاع. و اتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلاً:

- هل تتذكر أنني جئت إليك للمرة الثانية، عند منتصف الليل؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى... فهل تعلم ماذا كان هدفي حين جئت غليك في تلك السعة؟ كان هدفي أن أقتلك؟

ارتعشت.

- فبعد أن تركتك، لبثت أطوف في الشوراع على غير هدى زمناً طويلاً أصارع نفسي، فإذا أنا أشعر فجأة بكره لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يوشك أن ينفجر. قلت في نفسي:" بسببه وحده إنما أنا مضطر إلى الاعتراف الآن. لقد اصبح قاضي، و لن أستطيع أن أفلت من العقاب غداً لأنه يعلم كل شيء". ليس معنى هذا أنني

كنت أخشى أن تشي بي(إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي في لحظة من اللحظات) و لكنني كنت أقول لنفسي:" لن أستطيع أن أنظر إليه بعد ذلك إذا أنا لم أسلّم نفسي للسلطات". و سيان أن تكون في هذه المدينة أو أن تكون في أقصى الأرض، أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري حاكماً عليّ مديناً إياي. فأخذت أكرهك، كما لو كنت علة شقائي، كما لو كنت مسؤولاً عما أنا فيه. و رجعت إليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجراً. و جلست، و دعوتك أن تجلس أنت أيضاً، و لبثت دقيقة طويلة أفكر و أنا أحدّق إليك. بديهي أن حياتي كانت ستتحطم على أي حال لو قتلتك، و أنني كنت سأنتهي نهاية شقية، سواء اعترفت بالجريمة السابقة أم لم أعترف. و لكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، إنني لم أكن أهتم بالعواقب. كنت أكرهك، و كانت تحرقني رغبة قوية في أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب. أما ما عدا ذلك فكان لا يعنيني. ثم انتصر الرب في تلك الدقيقة على الشيطان في قلبي. و لكن اعلم أن الموت لم يقترب منك في من الأيام كما اقترب منك في تلك الليلة.

ما ت الرجل بعد أسبوع. و شيّعت المدينة كلها جثمانه إلى المقبرة. و ألقى الكاهن كلمات مؤثرة. و انتحب المنتحبون حزناً عليه، و اشتكوا الشكوى من المرض الذي أماته. و بعد الجنازة قاموا عليّ. و أصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعونني إلى منازلهم. غير أن عدداً من الأشخاص، كانوا قلة في أول الأمر ثم تكاثروا، بعد ذلك، قد انتهوا إلى الاقتناع بصدق اعترافاته، فكانوا يجيئون إليّ في كثير من الأحيان يزعجونني بأسئلتهم عنه، و قد امتلأت نفوسهم فضولاً شديداً و فرحاً خفيفاً. إن الإنسان يحلو له أن يرى رجلاً صالحاً يسقط و يتلطخ شرفه.

ثبت بالتواريخ الهامة من حياة دوستويفسكي

١٨٢١: في ٣٠ أكتوبر(تشرين الأول) ولد فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي في مستشفى للفقراء حيث كان والده يعمل طبيباً مقيماً

١٨٣٧: موت امه ماريا فيدورفنا في نيتشاييف

١٨٣٨: التحق فيدور بمدرسة الهندسة العسكرية في بطرسبرغ

١٨٣٩: مقتل والده على يد فلاحي قريته

١٨٤٣ : تخرج من مدرسة الهندسة برتبة ملازم أول و التحق بدائرة الهندسة التابعة لوزارة الحربية

١٨٤٤: استقال من الجيش و نشر ترجمة لكتاب بلزاك Eugénie Grandet في إحدى المجلات الدورية.

١٨٤٥: اتم روايته الأولى" المساكين" التي رحب بها الناقد بيلنسكي و اعتبره كاتباً عظيماً.

١٨٥٦: ١٥ يناير(كانون الثاني) نشرت "المساكين" في "منوعات بطرسبرغ"Peterbursky sbornik و ظهرت روايته الثانية"

المزدوج" بعد ذلك باسبوعين في مجلة"ملاحظات من الوطن"
Otechestvennye zapiski

١٨٤٧: نشرت قصته" صاحبة النزل" في "ملاحظات الوطن".

١٨٤٨: ظهر له"القلب الضعيف" و "لص شريف" و "الليالي البيضاء" في "ملاحظات الوطن".

١٨٤٩: في ٢٣ ابريل(نيسان) قبض عليه لاشتراكه في مؤامرة بتراتشفسكي و ظهرت له رواية غير كاملة بعنوان "نيتوشكا نيزفانوفا" في " ملاحظات الوطن".

في ٢٢ ديسمبر(كانون الأول) قيد إلى الاعدام ثم خفف الحكم عليه. و في ٢٤ من الشهر نفسه اخذ مكبلاً و اقتيد إلى سيبيريا.

١٨٥٠: في ٢٣ يناير(كانون الثاني) وصل إلى أحد مخيمات العمل في اومسك.

١٨٥٤: أعفي من عقوبة الاشغال الشاقة و أرسل إلى سيميبالاتنسك قرب حدود منغوليا كجندي عادي.

١٨٥٦: رقي إلى رتبة ضابط

١٨٥٧: نشرت قصته"البطل الصغير" التي كتبها في السجن سنة ١٨٤٩ و نشرت في "ملاحظات الوطن" غفلاً من التوقيع.

في ٢ فبراير(شباط) تزوج من ارملة من كونستانت تدعى ماريا ديمتريفنا في كوزنتسك. و أعيدت إليه رتبته كنبيل.

١٨٥٩: سمح له بالاستقالة من الجيش و العودة إلى روسيا. وصل إلى تفير في أغسطس(آب) ثم عاد إلى بطرسبرغ في ١٦ ديسمبر(كانون الأول). نشر"حلم العم" في مجلة"الكلمة الروسية" Russkoe slovo و "صديق العائلة" في "ملاحظات الوطن".

١٨٦٠: نشرت المقدمة و القسم الأول من كتاب" بيت الموتى" في "العالم الروسي" Russkyi mirو ظهرت كتاباته في مجلدين.

١٨٦١: اصدر اخوه ميخائيل مجلة شهرية بعنوان"الزمن" Vremya بدأت بنشر روايته"مذلون مهانون" في حلقات. ثم ظهرت الرواية نفسها في كتاب في العام نفسه. و أعيد طبع كتابه"بيت الموتى" كاملاً في "الزمن"

١٨٦٢: ظهرت رواية"بيت الموتى" كاملة في كتاب. و في يوليو- أغسطس قام دوستويفسكي بأولى رحلاته إلى الخارج: باريس، لندن و جينيف. نشر" ورطة غير سارة" في "الزمن".

١٨٦٣: نشر "ملاحظات شتوية حول انطباعات صيفية" في "الزمن". في مايو(آيار) منعت "الزمن " من الصدور. قام برحلته الثانية إلى باريس و إيطاليا. عاد إلى همبورغ بألمانيا حيث مارس القمار.

١٨٦٤: عمل محرراً"للعصر". نشر فيها" مذكرات من العالم السفلي". في ١٥ أبريل(نيسان" توفيت زوجته في موسكو، و في ١٠ يوليو(تموز) توفي اخوه ميخائيل.

١٨٦٥: توقفت "العصر" عن الصدور. قام برحلته الثالثة إلى الخارج. صدرت مجموعة جديدة من كتابته في مجلدين.

١٨٦٦: نشرت روايته"الجريمة و العقاب" على حلقات في"البشير الروسي"Russkyi vestnik.

في اكتوبر(تشرين الأول) أملى قصته"المقامر" على آنا غريغوريفنا. و نشرت في المجلد الثالث من مجموعة اعماله.

١٨٦٧: في ١٥ فبراير(شباط) تزوج آنا غريغوريفنا. ظهرت روايته"الجريمة و العقاب" في كتاب. و ١٤ ابريل(نيسان) العروسان يغادران روسيا إلى درسدن. ١٠ يوليو(تموز) ياتقي بترجنيف في بادن بادن.

١٨٦٨ : ظهرت رواية"الأبله" على حلقات في مجلة" البشير الروسي". في ٥ مارس(آذار) ولدت ابنته صوفيا التي ما لبثت أن توفيت في ٢٤ مايو(آيار).

١٨٦٩: سافر إلى درسدن عن طريق فينا و براغ حيث ولدت ابنته ليوبوف في ٢٦ سبتمبر(أيلول).

١٨٧٠: ظهرت قصته"الزوج الأبدي" في مجلة "الفجر" Zarya

١٨٧١: في يوليو(تموز) عاد إلى بطرسبرغ و في ١٦ من الشهر نفسه ولد ابنه فيدور. ظهرت رواية" المسوسون" في البشير الروسي.

١٨٧٣ - ١٨٧٤ : عمل محرراً (للمواطن) Grazhdanin. و ظهرت"المسوسون" في كتاب و "الأبله" في كتاب و قبض عليه و حوكم بتهمة مخالفة قوانين الرقابة.

١٨٧٥ : ظهرت رواية "الشباب الغض" في (ملاحظات) و في ١٠ أغسطس ولد ابنه اليكسي.

١٨٧٦ : ظهرت"الشباب الغض" في كتاب. بدأت (يوميات كاتب) بالظهور و أصدر أحد عشر عدداً. و ظهرت"روح وديعة" في عدد نوفمبر.

١٨٧٧ : ظهرت تسعة أعداد جديدة من اليوميات. ظهرت"حلم رجل مضحك" في أبريل.

١٨٧٨ : مات ابنه اليكسي في يونيو .

١٨٧٩ : ظهرت رواية"الأخوة كارامازوف" على حلقات في(البشير الروسي) حتى الكتاب التاسع من الجزء الثالث.

في يوليو– سبتمبر أقام في ايمز.

١٨٨٠: ظهرت بقية"الأخوة كارامازوف" وفي كتاب في شهر ديسبمر. ألقى كلمة في ٨ يونيو بمناسبة يوبيل بوشكين في موسكو و نشرت الكلمة في صحيفة موسكو و ظهرت في عدد كامل من أعداد (يوميات كاتب).

١٨٨١: في ٢٨ يناير(كانون الثاني) توفي دوستويفسكي في بطرسبرغ بعد يومين من اصابته بنزيف رئوي. و في اليوم الأول من فبراير احتفل بدفنه في مقبرة دير الكسندر نيفسكي.

مصادر التقديم و الملحق

أولاً: روايات دوستويفسكي، ترجمة الدكتور سامي الدروبي،

١- الشياطين، جزءان

٢- الأبله

٣- مذلون مهانون، جزءان

٤- المراهق، جزءان

٥- الأخوة كرامازوف، أربعة أجزاء

٦- المقامر

٧- الجريمة و العقاب، جزءان

ثانياً: الدراسات

١- دوستويفسكي، تحرير رينيه ويليك، ترجمة نجيب المانع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٦٧

٢- ريتشارد بيس، دوستويفسكي: دراسات لرواياته العظمى، ترجمة عبدالحميد الحسن، وزارة الثقافة، دمشق-١٩٧٦

٣- م.ب. باختين، قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- ١٩٨٦

٤- مجموعة من المؤلفين، دوستويفسكي: دراسات في أدبه و فكره، ترجمة نزار عيون السود، منشورات وزارة الثقافة و الارشاد القومي، دمشق-١٩٧٩

٥- ف. جيلز نياك، قصص من حياة دوستويفسكي، ترجمة ماجد علاء الدين و محمد بدر خان، دار الكتاب العربي ١٩٨٧

٦- نيقولا برديائف، رؤية دوستويفسكي للعالم، ترجمة فؤاد كامل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦

٧- ي. كارياكين، دوستويفسكي: إعادة قراءة، ترجمة خليل كلفت، كومبيو نشر، بيروت- ١٩٩١

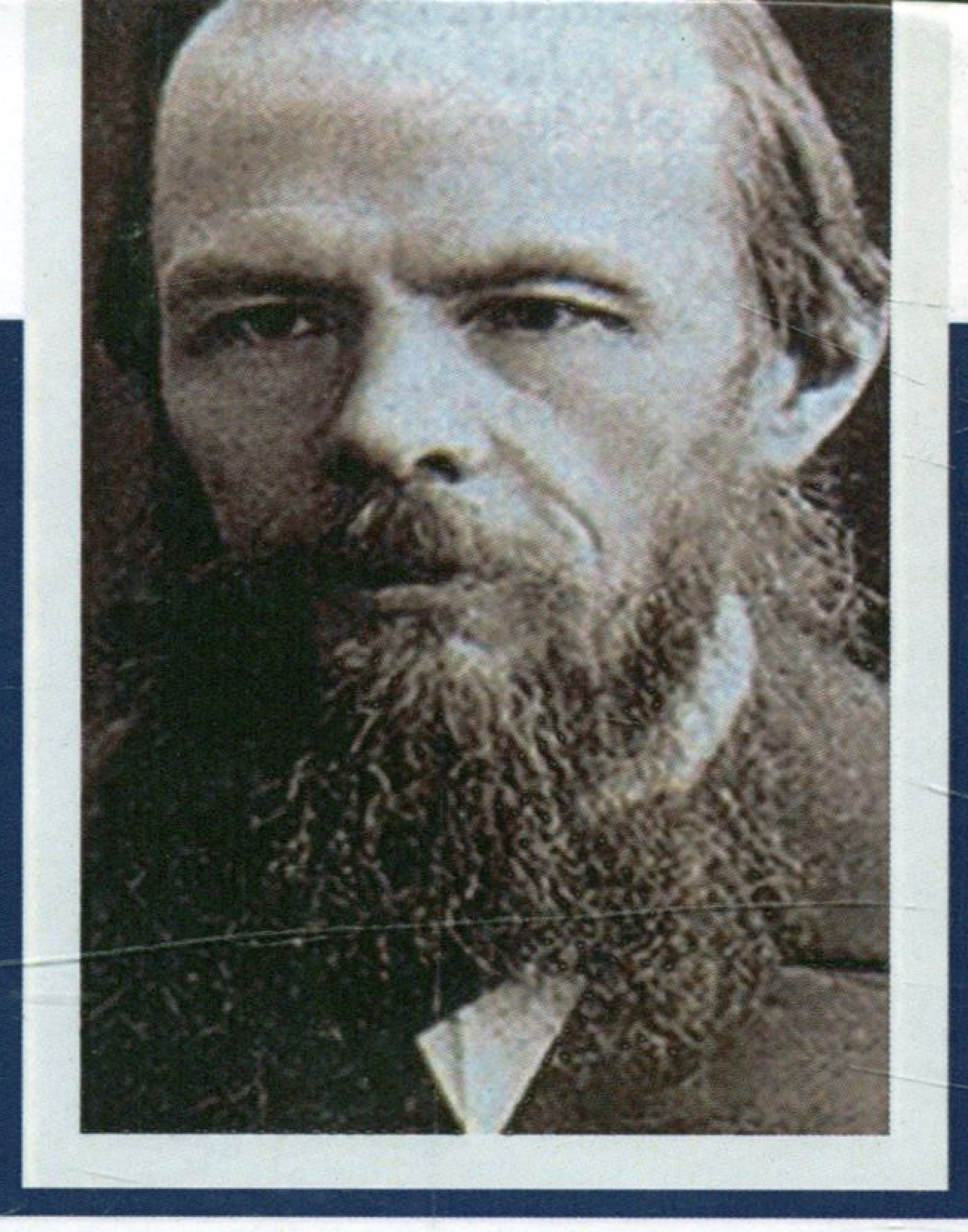
٨- إرنست جوردن، دوستويفسكي و الله: مختارات من أعماله الروائية، ترجمة قسطندي شوملي، دار الجيل، بيروت ٢٠٠٠

٩- ليونيد غروسمان، دوستويفسكي، ترجمة نسيم واكيم يازجي، دار علاء الدين،دمشق-٢٠٠١

١٠- هنري ترويا، دوستويفسكي:حياته - أعماله، ترجمة علي باشا، دار علاء الدين ، دمشق ٢٠٠٦

١١- اندريه جيد، دوستويفسكي: مقالات و محاضرات، ترجمة ألياس حنا ألياس، منشورات عويدات- بيروت ١٩٨٨.

الفهرس

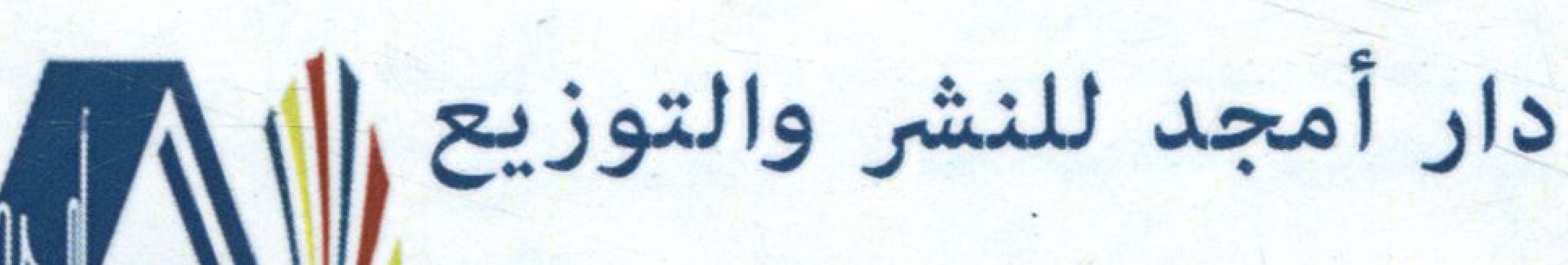


مشكلة الألم عند دوستويفسكي

تعتبر روايات دوستويفسكي حقلاً خصباً من حقول الدراسات الأدبية الروائية لما تتمتع به من فن القصص الروائي يعرف بـ "الدوستويفسكية".

أضف إلى ذلك ما يتمتع به دوستويفسكي نفسه من رهافة حس و ذكاء عاطفي ثاقب و دقة ليس في سرد الأحداث فحسب بل في وصفها على مستوٍ ميكروسكوبي، و عمق فلسفي صارخ ذو نزعة وجودية ثم تحليل سيكولوجي فاضح- سابق على فرويد و أدلر كما يزعم النقاد و الشراح في أدب دوستويفسكي.

أو كما يقول الكاتب دانييل جرانين:" و السيكولوجيا لدي دوستويفسكي أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، و لدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها، قضية الإيمان. بم يؤمن الإنسان؟ و هل يمكن أن يوجد الله؟ لعله من السذاجة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان، الإيمان بالانسجام، بالسعادة العامة، بِالمغزى و الغاية الخاصة من وجود الإنسان... دوستويفسكي يصور بجسارة أناساً فقدوا الإيمان ... تخلى الإيمان عنهم و تركتهم الآلهة ماتت .



دار أمجد للنشر والتوزيع

عمان - الأردن- شارع الملك حسين - مقابل مجمع الفحيص

جوال :

٠٠٩٦٢٧٩٦٩١٤٦٣٢ هاتف :٤٦٥٢٢٧٢

٠٠٩٦٢٧٩٩٢٩١٧٠٢

٠٠٩٦٢٧٩٦٨٠٣٦٧٠ فاكس:٤٦٥٣٣٧٢

dar.almajd@hotmail.com

dar.amjad2014dp@yahoo.com



9 789957 990343